٣٨ — مؤلفات فيكتور هوكو

طبعت مؤلفات فيكتور هوكو مراراً عديدة في قطع متفاوت في الصغر والكبر . ومنها ماهو مزين بالتصاوير والرسوم البديعة ومنها ما هو على أجمل ورق تمكنت المعامل الاوروبية من طبخه وصقله . وآخر طبعة طبعت للجمهور في اجزاء صغيرة الحجم (قطع ٣٢) يقرب عددها من ثلاثمائة جزء ثمن الجزء ٢٥ سنتيماً . وأواسط هذه الطبعات ما كان بالقطع المثمن في ٤٨ مجلداً ثمن المجلد عشرة فرنكات يضاف اليها اثناعشر مجلداً طبعت بعد وفاة المؤلف فيبلغ بذلك عدد المؤلفات ستين مجلداً . منها ١٦ مجلداً في الشعر وهي

(١) المدائح والمطربات

(١) الشرقيات . اوراق الخريف

(١) أغاني الشفق . الاصوات الداخلية . الاشعة والظلال

(١) القصاص (٢) التأملات أي سانحات الفكر

(٤) سير الدهور

(١) أغاني الشوارع والاحراج (١) السنة المهولة

(١) صناعة كون الانسان جداً

(١) البابا . الرحمة العالية . الاديان والدين . الحمار

(١) رياح العقل الاربع

ومنها خمسة مجلدات في الروايات التمثيلية المنظومة وتسمى « درام » وهي :

(١) كرومويل

(١) ايرناني . ماريون دولورم . الملك تيسلي

(١) لوكريس بورجيا . انجلو . ماري تيدور

(١) روى بلاس . اسمير الده . بورغراف

(١) توركماده . امي روبار

ومنها اربعة عشر مجلداً في القصص وتسمى « رومان » وهي :

(١) هان الاسلاندي

(١) بوغ جارغال . آخر يوم من أيام المحكوم عليه أو قلود كو

(٢) نوتردام دوباري أو كنيسة باريس الجامعة

(٥) البؤساء

(٢) المشتغلون في البحر وفي مقدمته ارخبيل بحر المانش

(٢) الانسان الضاحك

(١) ثلاث وتسعون

ومنها ثلاثة مجلدات في التاريخ وهي :

(١) نابوليون الصغير

(٢) تاريخ جرم

ومنها مجلدان في السياحة عنوانها (نهر الرين)

ومنها مجلدان في الفلسفة أحدهما أدب وفلسفة والآخر وليم شكسبير

ومنها ستة مجلدات في الاقوال والاعمال وهي :

(١) قبل النفي

(١) مدة النفي

(٢) بعد النفي

(٢) فيكتور هوكو تاريخه

هذا ما سلمه الشاعر بعد التنقيح والتهذيب للطبع فنشر في حياته . وله مؤلفات أخرى جمعت من التسويد التي سودها والاوراق التي تركها وطبعت بعد وفاته بغير تصحيح في اثني عشر مجلداً وهي :

(١) الاشياء المرئية . (١) الله . (١) عاقبة الشيطان . (٣) كل العود

(١) الموسيو الحر . (١) التوائم . (١) مراسلات الخطيبة

(١) السياحة في فرانسا والبلجيك . (١) السياحة في جبل الالب وفي جبل البيرينه

(١) السنون المشؤمة

فما ينشر بعد موت المؤلف يسمى (Posthumes) ويجوز فيه التنقيح والتهذيب عند اعادة طبعه . والذي ينشر في حياة المؤلف يسمى (ne Varietur) أي الذي لا يتغير ولا يجوز التبديل فيه بعد وفاة صاحبه ولا تحريف الكلم عن مواضعها . ولو وجد من يتحرى في أوراق فيكتور هوكو لربما تمكن من استخراج مجلد أو مجلدين أيضاً . كما جمعت أخيراً المكاتيب التي حررها العلامة رينان لامه وهو في المدرسة حديث السن وطبعت في مجلد . ولعل القارىء يستكثر عدد هذه المؤلفات التي لا يجد الانسان وقتاً لمطالعتها فضلاً عن تحريرها وسبك انشائها سيما ما يحتاج منها لدقة وتلطف كقرض الشعر ونظم الروايات التمثيلية ولكن اذا تأمل في همة رجال العلم والادب واقدامهم زال استغرابه وعلم ان ملكتهم رسخت في النظم والانشاء حتى صار التحرير طبيعة ثانية لهم كالكلام . وانا نشاهد المبعوثين في مجلس نواب الامة يتكلم الواحد منهم الساعات الطوال بدون أن يتلعثم . ويضبط كلامه بالاصول المعروفة بالاستنوغرافيا وينشر في جرائد المساء فيملأ الاعمدة الكثيرة والصحائف الكبيرة . وقد بلغنا عن مبعوث في بلاد المجر انه تكلم في موضوع اثنتي عشرة ساعة بحيث انه بدأ في الصباح وبعد استراحة الظهر عاد لموضوعه واكمل بحثه في اليوم الثاني . فتألف من كلامه مجلد ضخم . ولو قرأنا فهرست الكتب التي ألفها الكندي والرازي وأصحاب المعاجم والتآليف الضخمة لوجدناها تقارب هذا المقدار أو تزيد عليه . ورأينا فيما تقدم ما ألفه العرب في أفانين الادب من المؤلفات الكبيرة ككتاب الاياك والقصون للعمري ونحوه . على ان لفيكتور هوكو معينين في أعماله . فتاريخ فيكتور هوكو في مجلدين حررته زوجته الشرعية الشاهدة على حياته . وكانت الممثلة البارعة جوليت دروه تنسخ له وهو يملي عليها . وربما كتب له أيضاً الشاعر اوغوست فاكيري . وحرر ابنه فرانسوا من جزيرة كيرنزي لاحد أصحابه في فرانسا يقول

« نحن كلنا نشتغل . والدي يتمم نظم الحماسات الصغيرة . وشارل يصنف رومانا وأنا اتحف فرانسا بشكسبير واجتهد بان اكون ترجماناً صادقاً لهذه القريحة

الواسعة . »

وفي الحقيقة ان فرانسوا هوكو ترجم مؤلفات شكسبير أحسن ترجمة فطبعت في ثمانية عشر مجلداً بعد ان عرضها على أبيه واستكتبه عليها المقدمات والحواشي . فجميع المؤلفات كانت تعرض على فيكتور هوكو وبعضها يطبع باسمه لانه كان رأس هذه العصبة ومدير هذه الجمعية المؤلفة من زوجته وصاحبته وأولاده وأصحابه . ولم يزل صغار الكتبة والشعراء في أوربا ينسبون مؤلفاتهم واشعارهم الى مشاهير الرجال ترويجاً لها وانفاقاً لبضاعتهم في سوق العلم والادب . فان المؤرخ الشهير الفرنساوي ميشله المستند في مؤلفاته على القصص التاريخية التي ألفها والترسقوت الانكليزي نسب لنفسه في التاريخ الطبيعي الكتب الاربعة التي عنوانها الطير ، الحشرة ، البحر ، الجبل مع أن المحرر الحقيقي والمصنف لهذه الكتب النفيسة على مايقال هي زوجته المادام ميشله وكانت من الفاضلات . ووجد المحققون في تاريخ الكيمياء أن بعض كتبها القديمة حررها أصحابها في القرون الوسطى وعزوها الى جابر وهرمس تقوية لسندها واقناعاً بصحتها . فانتحال الشعر أو الكتاب المصنف شائع بين الكتاب والشعراء وتارة يكون برضاء المؤلف الحقيقي وتارة يكون بغير رضائه وهو السرقة . وقد يكون السارق المنتحل أشعر وأقدر من صاحب الشعر والتصنيف ولكن وقته لم يسمح له بالاتيان بمثل ذلك المؤلف . ولذا اتهمت الاكاديمية فيكتور هوكو بسرقة القصيدة التي عرضها على لجنة التحكيم والمسابقة وسماها (فوائد المطالمة) ولم يعطوه الجائزة التي استحقها

وكان يحدث امثال ذلك في أيام العرب وفي حضارة الاسلام كما اتهم الحريري في مقاماته . وكان قد عمل مقامة واحدة على مقامات البديع الهمذاني وعرضها على انوشروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود السلجوقي وكان الحريري خصيصاً به فأمره الوزير بانشاء المقامات واتمامها فصنف أربعين مقامة وأتى بها من البصرة محل تحصيله العلم الى بغداد ونزل في الحريم وهي سرة العاصمة والمحلة المشتملة على دار الخلافة وقصور الامراء والاعيان وكان ذلك في خلافة المقتدي بالله سابع

وعشرين الخلفاء العباسيين . فاستحسن الادباء طرز المقامات وحسدوه عليها واتهموه بسرقتها . ولما امتحن سد عليه ولم تجد قريحته بشيء وهو في الحريم وسط تلك العاصمة الكثيرة الزحام والجلبة فنفي الى المشان قرية بقرب البصرة مشتملة على نخل وزرع ولكن هواءها فاسد بسبب المستنقعات وكان اذا غضب على شخص نفي اليها . فالف الحريري في المشان عشر مقامات اخرى وكملت مصنفاته خمسين مقامة فقال فيه ابن جكينا يهجوه

شيخ لنا من ربيعة الفرس ينتف عثنونه من الهوس
انطقه الله بالمشان وقد الجمه في الحريم بالخرس

وكان الحريري ينتسب الى ربيعة الفرس وهي قبيلة من قبائل العرب على حدود فارس . وكان اولع بنتف لحيته والعبث بها . ووعده أحد الامراء يوماً بولاية على شرط أن يترك نتف لحيته فامتثل برهة ولم يستطع الصبر فقال « أحب اليّ أن تعاد لي الولاية على لحيتي من كل ولاية » . ونشأ الحريري في مجمع العلماء والادباء واليهم نسبت الاقوال الكثيرة في النحو فقيل مذهب البصريين ومذهب الكوفيين وكانت ولادته في البصرة وقيل لا بل ولد بالمشان المجاورة لها (٤٤٦ - ٥١٥ هـ) وكانت السلطة والنفوذ في ذاك العصر للدولة السلجوقية التي ظهرت في العراق العجمي واتخذت مدينة الري عاصمة لها ويقال المنسوب لها الرازي وقد صار علماً على كثير من العلماء والفلاسفة ولم تزل خرابات الري مشاهدة بظاهر طهران عاصمة الدولة الايرانية ويقال لها عبد العظيم نسبة لاحد الاولياء المدفون فيها وهناك كان مقتل الشاه السابق . وسميت ملوك هذه الدولة السلجوقية بسلاجقة ايران تمييزاً لهم عن سلاجقة الروم الذين اتخذوا قونية عاصمة لهم وعن سلاجقة كرمان الذين حكموا في الجنوب الشرقي من بلاد العجم . وظهر في سلاجقة ايران ١٤ ملكاً في ظرف ١٦١ سنة واعظمهم ثالثهم ملكشاه (٤٤٧ — ٤٨٥ هـ) ابن الب أوسلان ويسمى ابا الفتح جلال الدين واليه ينسب التاريخ الجلالي الذي وضعه عمر الخيام الاديب الفلكي الشهير وكان وزيره نظام الملك صاحب المدرسة النظامية في بغداد . فيفهم من

ذلك ان ملوك هذه السلالة ووزراءها وامراءها كلهم حريصون على تعزيز جانب العلم والادب ولا غرو ان أتى الادباء في زمانهم بمثل المقامات الحريرية . وألف كمال بك امام الادب في اللسان العثماني رواية بليغة سماها « جلال » وجعل لها مقدمة يعدها الادباء من أبلغ ماحرر في اللسان العثماني على الاسلوب الجديد

فيتضح مما سبق ان مؤلفات فيكتور هوكو على نوعين منظوم ومنثور . وكل واحد منهما يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام . فالمنظوم منه ماهو شعر ويشتمل على فنون كثيرة مثل الاود والبلاد والاليجي ..... الخ ولكل منهـا عروض مخصوص . ومنه ماهو روايات تمثيلية تتلى على المراسح كما يتلى النثر المرسل بغير التفات الى أوزان النظم ولا قوافيه أي بلا ترنم ولا تطريب ولا تغريد ولا ترخيم في الصوت ولا وقوف على القافية . ونظمت هذه الروايات التمثيلية التي يقال لها درام على عروض البحر الاسكندري في الغالب وهو المبني على اثنى عشر هجاء

فاذا جرى التوقيع بالروايات الدراماتيقية على آلات الطرب ولحن فيها على طريقة الصناعة الموسيقية سميت « اوبرة » ولاجلها بنيت المراسح الكبيرة التي يقال لها اوبرة كالاوبرة الخديوية في القاهرة والمرسح الذي بني في الاستانة ثم احترق ولم يجدد بناؤه . ويقال لاوبرة باريس أكاديمية الموسيقى لانها شعبة من شعب أكاديمية الصنائع النفيسة التي هي في عداد الاكاديميات الخمس الشهيرة في باريس . ومثال ذلك اوبرة فوست التي صنف قصتها الدراماتيقية الاديب الالماني كوته ثم جاء الملحن الفرنساوي كونو ووفق ترجمة كلامها على صناعة الالحان . وكذا رواية عائدة (آيده) التي وضعها على صناعة الالحان الملحن الشهير الطلياني فردي ثم نظمها بالفرنساوية أديبان من ادباء الفرنساويين . وأول ما مثلت هذه الرواية الاخيرة في الاوبرة الخديوية بالقاهرة سنة ١٨٧١ ثم مثلت في باريس على المرسح الطلياني سنة ١٨٧٦ وتمثل اليوم على جميع المراسح الفرنساوية في العاصمة والايالات وفي اكثر المدن الاوروبية ولعل هذه الرواية هي التي ترجمة العربية باسم (عائدة) .

فالاوبرة هي تأليف دراماتيقي اجتمع فيه الشعر والموسيقى . ولذا فهي تشتمل

على أوزان العروض وأنغام المزامير وأقاويل الشعر أي ما فيه من التشبيه والتخييل فان دخل في الاوبرة مع الكلام المنظوم كلام منثور أيضاً سميت أوبرة ـ كوميك كرواية كرمن . وان لم يكن موضوع الرواية دراما أي فاجعة بل كان كوميديا مضحكة سميت (بوف) و(بوفون) و(أوبيريت) تصغير أوبرة . واجتهد بعض الادباء الترك في التأليف بين الشعر والموسيقى في اللسان العثماني فترجموا رواية كرمن نظماً للتركية وشخصوها مع الانغام الموسيقية على المراسح المتخذة من الاخشاب في محلة اقسراي وفي منتزهات ضواحي الاستانة . ومع أن مشروعهم ابتدائي فالتمثيل كان لا بأس به رغماً عن حداثة نشأته . فلو حصلت عناية في تنشيط هذا المشروع بقوة المال وهمة الرجال لنجح ولا شك باللغة التركية وباللغة العربية أيضاً . فان دوائر البلدية في مدن أوروبا الثانوية فضلاً عن العواصم تنفق النفقات الباهظة في كل سنة لاعانة المراسح . لان ما يجتمع من اجرة الدخولية لا يكفي لتحسين المراسح الى الدرجة التي بلغتها مراسح أوروبا . وكان لعلماء العرب وفلاسفتهم المتقدمين اهتمام بعلم الموسيقى وللفارابي فيه اليد الطولى ومما ألفه كتاب الموسيقى الكبير . ونقل صاحب الارز في ما نشره من الازجال والموشحات عبارة عن ابن رشد وردت له في تلخيصه كتاب أرسطوطاليس في الشعر الذي طبعه المستشرق فوستو لازينو في مدينة فلورانسه سنة ١٨٧٣ قال ابن رشد :

« المحاكاة في الاقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء . من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عند صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ . أعني الاقاويل المخيلة الغير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاشعار التي استنبطها في هذا اللسان أهل هذه الجزيرة أي الاندلس» . اه . ولا شبهة في أن أعاريض الموشحات والازجال من أنسب العروض لنظم روايات الاوبرة لسهولة التوقيع بها على آلات الطرب بخلاف البحور الستة عشر في العربية أو البحور الثمانية عشر بالفارسية والتركية .

ولا نطيل الكلام في هذا المبحث فان أهله أولى بالبحث فيه والتفتيش عن دقائقه وخوافيه ونعود للصاد الذي كنا فيه

وأما النثر الذي ألفه فيكتور هوكو فكله من قبيل المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاءه بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها . وليس عند الافرنج سجع . وهذا المنثور على أقسام وفنون شتى منها القصص التي يقال لها « رومان » وهي ما صور فيها مؤلفها غرائب الواقعات وعجائب الاتفاقات واستلفت نظر القارىء أو السامع بمفتريات واختلاقاته وتخيلاته البديعة . وسميت هذه القصص رومان او رومانس باسم اللغة القديمة التي كتب فيها رومان رولان وأمثالها من القصص والحكايات المنظومة والمنثورة . والرومانات على أقسام كثيرة منها الرومان التاريخي والغرامي أو الاحساسي والروحاني والفني والسياسي الخ ومن منثور فيكتور هوكو أيضاً التاريخ والسياحة والفلسفة والاقوال والاعمال والرسائل والخطب والسياسيات وغير ذلك .

٣٩ — نظم فيكتور هوكو

قرض فيكتور هوكو الشعر في أعاريض مختلفة . منه ما هو على وزن البحر الاسكندري المنسوب لاحد الشعراء اليونانيين أو المدينة الاسكندرية التي زهت فيها العلوم والمعارف والآداب اليونانية على عهد البطالسة . ويتألف عروض البحر الاسكندري من اثني عشر هجاء اذا كانت القافية مذكرة ومن ثلاثة عشر اذا كانت مؤنثة ويقسم كل بيت الى شطرين بوقفة Césure تأتي بعد الهجاء السادس المساواة الشطرين . والنظم في هذا البحر صعب يحتاج الى نفس عال وتلطف كثير ومهارة زائدة وبه تظهر قوة الشاعر واقتداره على التصرف في الكلام ولذا اختص بالمواضيع الجدية العالية لقصائد الحماسة وروايات الفاجعة . واختاره فيكتور هوكو لنظم روايات الدرام التمثيلية المذكورة في الكتب الخمسة المتقدم بيانها ولنظم غيرها من الاشعار الحماسية والتاريخية . ولكنه غير فيه كثيراً ولم يراع الوقوف على الهجاء

السادس بل قسم البيت الى شطرين غير متساويين وجوز تكميل معنى البيت الاول بالفاظ من البيت الثاني مع أن العرب يشترطون ان يكون كل بيت من ابيات الشعر تاماً في بابه مستقلاً في معناه. ويمكن تشبيه البحر الاسكندري بالبحور العربية الستة عشر او البحور الفارسية الثمانية عشر

ومن شعر فيكتور هوكو ما هو على أوزان مختلفة تتألف من ستة او ثمانية او عشرة هجآءات نظمت أسماطاً أسماطاً واغصاناً اغصاناً وجعل لها ادواراً ولازمات على نسق ما استحدثه الاندلسيون وبقية شعراء العرب المتأخرين من الموشحات والازجال. وهي اسهل طريقة واقرب تناولاً من البحر الاسكندري كما ان الموشحات والازجال العربية اسهل من بقية البحور. ولها عند الافرنج اسماء بحسب أجناسها. مثل اود وبالاد ورونديو وايامجي الخ. ولها أدوار تسمى قمبلة وستروف ولها أيضاً لازمات refrain الخ. واقتبس الفرنساويون هذه الاعاريض من شعراء اتروبادور تلقوها عن عرب الاندلس كما أخذوا عنهم علم القوافي. فان شعراء الافرنج على الاطلاق لم يكن لهم معرفة بالقوافي وانما كانوا يعتاضون عنها في أشعارهم بما يسمونه (اسونانس) وهو شبه القرادي والمتابق كما مر ذكره. ومثلنا فيما سبق القافية بكلمتي (ساج) و(باج) وما يسمونه اسونانس بكلمتي (ساج) و(آم) والافرنج لا يلتزمون في القصيدة او المنظومة قافية واحدة أو رويا واحداً كما يفعل العرب. ففيكتور هوكو لم يلتفت كثيراً الاوزان العروض التي نظم فيه من تقدم عليه من الشعراء بل تساهل جداً في جانب الالفاظ واستحدث من عند نفسه أنواعاً جديدة ووضع هذه القاعدة وهي

« ان الشعر ليس في قوالب المعاني وانما هو في المعاني نفسها. فالشعر هو الامر الباطني لكل شيء في الوجود »

فهذه القاعدة ليست مجهولة بالتمام عند أدباء العرب. ولعل ابن رشد اشار اليها في العبارة السابقة بقوله عن المحاكاة في اللفظ «اعني الاقاويل المخيلة الغير الموزونة». وحكي عن حسان بن ثابت حينما اتاه ابنه عبد الرحمن وهو صبي يبكي ويقول لسعني طائر

فقال حسان — صفه يا بني

فقال — كانه ملتفٌ في بُرديٍ حبره وكان اسمه زنبور

فقال حسان — قال ابني الشعر ورب الكعبة

فمقصود الصبي ان الطائر الذي اسمه يشبه في اجنحته وشكله المنقش العجيب الشخوص الملتفّ بدثاء موشى ومصبغ . وقول حسان حجة على أن الشعر لا ينحصر في الكلام المقفى الموزون وانما حقيقة الشعر في المعاني والتخيل وفيما يحدثه على النفس من التأثير . ولكن درج تعريف الشعر على الالسنة بانه كلام مقفى موزون . وسبق لنا ذكر تعريف ابن خلدون للشعر بانه « الكلام البليغ المبني على الاستعارة او الاوصاف المفصل اجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على أساليب العرب المخصوصة » . وعلى هذا التعريف يكون كلام المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء وقال ابو الفداء عن المعري « وطبق الارض ذكره . . . ما كثر مصنفاته وكيكة فهجرت لذلك » . والصحيح ان كلاً منهما امام مجدد في الادب خرجا بالكلام عن تلك القيود المدرسية واطلقا للقريحة عنان الحرية وكان النوع المعروف بين الادباء هو نوع القصيد وله أساليب معروفة عندهم تختص بمطالع القصيدة و بيت التخلص والختام وذكر الاطلال والرسوم والراحلة والسفر . فالمعري والمتنبي خرجا عن هذه الاساليب ولكنهما افرطا في ايراد التشابيه الغامضة والالفاظ اللغوية واحتاج شعرهما الى شرح طويل وتفسير ثم صار هو أيضاً شعراً مدرسيًّا بسبب نسج المتأخرين على منواله وتهافتهم على التشابيه الغامضة . وقال فيكتور هوكو في كتابه المسمى أدب وفلسفة :

« لا يكفي ان يكون للشعر قالب حسن للالفاظ بل يلزم ان يحتوي على معنى او تشبيه او احساس . ليكون له رائحة ولون وطعم . تسعى النحلة في بناء الواجهات الست لبيوتها من الشمع . ثم تملأها بالعسل . فهذه البيوت او الخلايا هي ابيات الشعر . والعسل هو الشعر . » اه

فشبه الشعر بالشهد وهو العسل في شمعه . او بالخمر أيضاً ولها أوصاف ثلاثة:

رائحة تفوح منها كما يفوح المسك . وتسمى باصطلاحهم (بوكه) . ولونه كانه يا قوتة سيالة او صفراء فاقع لونها . وطعم يعرفه أهل الذوق كما تعرف طعوم المآكل ، ويميزون فيه بين الحسن والاحسن والضار والنافع والانفع . ورأيت في أهل الذوق من رسخت لهم ملكة حتى أصبحوا يعرفون الخمر من أي كرم بقرية ومن محصول اي سنة بمجرد معاينة اوصافها الثلاثة بالحواس الثلاث حاسة البصر وحاسة الشم وحاسة الذوق . وتشبيه الشعر بالخمر والعسل معروف عند العرب ويقولون فلان من أهل الذوق في الكلام وتقول العامة (كلام بلا طعم) ومما يؤيد ان الشعر في المعاني قول أبي محمد الخازن من ادباء اصفهان وكان ينتسب للصاحب بن عباد ويراسل ابا بكر الخوارزمي قال :

لا يحسن الشعر ما لم يسترق له حر الكلام وتستخدم له الفكر
انظر تجد صورة الاشعار واحدة وانما لمعان تشقق الصور

ثم ان تقسيم الشعر عند لافرنج الى اود وبلاد واليجي . . . الخ هو تقسيم باعتبار الشكل الخارجي أي باعتبار قوالب الالفاظ وبحور العروض والادوار . . . الخ . . واما باعتبار المعنى فيقسم الى ثلثة أقسام غرامي وحماسي ودرامي . . فالغرامي — ويسمى الموسيقي أيضاً لان الاصل فيه الانشاد على نغمات الاوتار — هو كل شعر أعرب عن الحواس الشخصية . فمؤلفه يبين فيه احساسه وعواطفه وحبه وبغضه وشقاءه وسعادته . فاذا جرى التوقيع به على آلات الطرب كان أشد وقعاً وتأثيراً على النفوس . والشعر الحماسي هو ما وصف به شجاعة الشجعان وذبهم عن الحريم والاوطان وفيه احاديث الشهامة والغيرة والحمية فهو بهذه الصفة تاريخي . والدرام هو ما صور فيه الحياة الانسانية وتقدم تفصيل الكلام عليه

فالاود والبلاد والاليجي . . . الخ يقابلها في العربية المدح والغزل والرثاء . . . الخ غير ان هذه الاقسام في العربية من الاقسام المعنوية واما عند الفرنساوية بين فهي من الاقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف . ومن هذه الاقسام اللفظية أيضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من شأنها

تهييج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة وتنتهي الرواية الفاجعة في الغالب بمصيبة فروايات القدماء التي على هذا الطرز تسمى تراجيديا . وروايات أصحاب الطريقة الرومانية التي على أسلوبها تسمى درام . واما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق الهيئة الاجتماعية ومساريهم ومعايبهم بصورة هزلية مضحكة . كروايات موليير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومنشورة في مطبعة ابو الضياء . وأشعار الهجاء عند الافرنج تشتمل على الهجو واللوم والانتقاد والتعريض والاستهزاء وخلط الجد بالهزل ونحو ذلك . ومن أنواع الشعر عندهم أيضاً الشعر البدوي المصور لاخلاق البدو ولرعاة وهم في البادية والجبال . وقد أحسن لبيد بن ربيعة العامري في تصوير اخلاق البادية والمعيشة البدوية قبل الاسلام وديوانه مطبوع في فينا عاصمة النمسا . ومن الشعر ما نقص فيه الحكايات وتضرب الامثال على السنة الحيوانات كحكايات لافونتين . ومنه أيضاً الشعر الذي على نهج الرسائل والمكاتيب . وله امثال عند العرب ومن شعراء دمشق المتأخرين من نظم حجة شرعية بجميع ما يلزمها من القيود والشروط

وجل مهارة فيكتور هوكو في الشعر الغرامي او الموسيقي المعرب عن الاحساس الشخصي . ولشعره نغمة مطربة وقوافٍ عامرة . والحان تحن له القلوب وترتاح لسماعها النفوس . وهو الذي اوجد عند الفرنساو بين الهجو الموسيقي في المنظومات التي هجا بها نابوليون الثالث . ولم تزل هذه الانغام والقوافي والالحان هي الباعثة على رواج اشعاره واقبال الجمهور عليها

وكما ان فيكتور هوكو غير أفاعيل الشعر وتفاعيله واصلح عروضه على المثال المشار اليه آنفاً ، أصلح كذلك الفاظ الشعر ومعانيه . وابطل جميع اصطلاحات الادباء أي الاساليب والتعبيرات المصطلح عليها بينهم والتي لا يفهمها الا أهل الغوص على المعاني وهم خواص الناس . وقال بان جميع الالفاظ سواء . لا فرق فيها بين اللفظ الذي وقع اختيار الادباء عليه وبين اللفظ الذي رفضوه وقالوا عنه سوقي مبتذل . وجوز للكتبة والشعراء الاخذ بكل واحد من نوعي الالفاظ المختارة والسوقية واستعمالها

بلا فرق في النظم والنثر [1] على شرط توافقهما لقواعد النحو والصرف وابطل أيضاً ما كان يستعمله الادباء في كلامهم من المقدمات والدوارات التي من شأنها تغطية المعنى والتثقيل عليه وكذا التعبيرات العمومية والاجمالية التي يتلاشى بها المعنى ويستبهم كما يفعل ادباء العرب في خطبة الكتاب المصنف وفي مقدمته . ولم يرض من جميع ذلك إلا بالتعبير الاصلي والمعنى الحقيقي الدال على خصوصية الموضوع . لان الغرض من تأليف الكلمات وتصنيف الكلام انما هو تشخيص الموضوع وبيان مزيته وغرابته . فلا حاجة للاستعارة ولا المعنى المجازي . ويقوم مقام الاستعارة التشبيه أو التخييل الذي هو نوع من الاحساس لا التشبيه والتخييل المستفاد من طرز الكناية . فالواجب على الكاتب ان لا يشغل نفسه بالاستعارات وأنواع البديع وان لا يتصنع ولا يتعمل في الكلام بل ينبغي له ان يهتم ببيان الموضوع الذي هو فيه وايضاحه ووصفه بالاوصاف السديدة المظهرة له ظهور الشمس في رابعة النهار ويوضح انفعالاته النفسية في ذلك الموضوع ليكون أشد تأثيرًا على السامع . فتأثير الكلام يكون من جهة الانفعال النفسي والتصوير الطبيعي لا من جهة الاستعارات

غير أن فيكتور هوكو وأهل طريقته لم يمنعوا انفسهم من استعمال الاستعارات المدرسية والتعبيرات المصنعة لرسوخ ملكتهم فيها . ومن الاستعارات التي وردت لفيكتور هوكو على الطرز القديم قوله « نجوم المركبة » ويريد المصابيح التي تنار بها المركبات ليلاً وتظهر عن بعد كالنجوم

فادباء العرب قالوا بان جل محاسن الكلام ان لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه والتمثيل والاستعارة والكناية وجعلوها اقطاباً تدور عليها المعاني . ولذا تجد غزلهم مثلاً يدور دائماً حول التفنن في تشبيه القدود بالاغصان والنهود بالرمان والخدود بالورد

---

(١) ذكر الجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع اخيراً في مصر في الكلام على الالفاظ المستحسنة ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم ، ويتداولونه في زمانهم ، ولا يكون وحشيًّا غريبًا ، او عاميًّا سخيفًا ، سخفه بازالته عن موضوع اللغة ، واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة ، كقول العامة (اشغلت) و (انفسد)

والجلنار والعيون بالنرجس ونحوذلك . على حد قول الشاعر

قلبي على قدك المشوق بالهيف طير على الغصن أم همز على الالف
وهل سويداءه خال بخدك أم خويدم أسود في الروضة الانف

وهي قصيدة غراء من كتاب ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . والمراد تشبيه قدّ المشوق بالغصن او بالالف . وقلب العاشق بالطير او بالهمزة . وفي البيت الثاني تشبيه سويداء القلب وهي الجنة السوداء التي فيه بالخال الذي على خد المحبوب وتشبيه الخال بالخادم الصغير الاسود وهو في الروضة . لان جسد الحبيب في اصطلاحهم بستان فيه جميع الازهار والفواكه والاشجار والانهار والتلال والوهاد والاغوار والانجاد . فكان جميع المخلوقات الطبيعية تتشخص في هذا الجسد . فجميع اشعارهم في الغزل وجميع تفنناتهم فيه يدور ويرجع لاصل واحد واحسن مثال له القصيدة الآتية

نالت على يدها مالم تنله يدي نقشاً على معصم اوهت به جلدي
كأنهُ طرق نمل في انامِلها او روضة رصعتها السحب بالبرد
خافت على يدها من نبل مقلتها فالبست زندها درعاً من الزرد
مدت مواشطها في كفها شركاً تصيد قلبي بهِ من داخل الجسد
وقوس حاجبها من كل ناحية ونبل مقلتها ترمي به كبدي
وعقرب الصدغ قد بانت زبانته وناعس الطرف يقظان على الرصد
ان كان في جلنار الخد من عجب فالصدر يطرح رماناً لمن يرد
وخصرها ناحل مشى على كفل مرجرج قد حكى الاحزان في الخلد
انسية لو رأتها الشمس ماطلعت من بعد رؤيتها يوماً على أحد
سألتها الوصل قالت انت تعرفنا من رام مناوصالاً مات بالكمد
وكم لنا عاشق في الحب مات جوى من الغرام ولم يبدي ولم يعد
فقلت استغفر الرحمن من زلل ان المحب قليل الصبر والجلد
وخلفتني طريحاً وهي قائلة ما تنظرون فعال الظبي بالاسد

قالت لطيف خيال زارني ومضى بالله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقال خلفته لو مات من ظمإ وقمت قف عن ورود الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا في الحب شيمته يا برد ذاك الذي قالت على كبدي
واسترجعت سألت عني فقيل لها ما فيه من رمق دقت يداً بيد
وامطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردًا وعضت على العناب بالبرد
وانشدت بلسان الحال قائلة من غير كره ولا مطل ولا مدر
والله ما حزنت اخت لفقد اخ حزني عليه ولا ام ولا ولد
فاسرعت واتت تجري على عجل فمنذ رؤيتها لم استطع جلدي
واغمرتني بفضل من عواطفها فعادت الروح بعد الموت للجسد
هم يحسدوني على موتي فوا اسفي حتى على الموت لا اخلو من الحسد

فهذه القصيدة اشتملت على كثير من التشابيه وعلى شيء قليل من المعاني وعلى شيء اقل من الاحساس . فشبه النقش الذي تنقشه الماشطة على يد العروس بطرق النمل وهم ذاهبون لمساكنهم قطاراً بجانب قطار . وبالبرد النازل على روضة البقل وبدرع الزرد . وبشرك الصيد اي شبكته . وشبه الحاجب بالقوس والاهداب بالنبل والكبد بالهدف . وشبه الشعر الاسود على الصدغ بالعقرب وطرفه الملوي بالزبانة . وزبانتا العقرب قرناها . وشبه الخد بالجلنار وهو زهر الرمان وبالورد ايضاً والثدي بالرمان . وشبه نفسه بالاسد وشبهها هي بالشمس والظبي وشبه دموعها باللؤلؤ وعينيها بالنرجس وانامليها المصبوغة بالحنا الاحمر بالعناب واسنانها بالبرد . وردفها بالحزن وهو ما غلظ وارتفع من الارض ويسمى الرابية والكثيب ايضاً

وأما المعاني التي في هذه القصيدة فهي سؤاله الوصل وجوابها بالرد وصبره وجلده على البعد ووفاه في الحب حتى لم يبق فيه رمق . فشفقت عليه وبكت وحزنت حزن الاخت لفقد اخيها والام على ولدها واتت اليه تجري على عجل وتعطفت عليه وانعشته فحسده العوازل

فادباء العرب يستعذبون هذا الكلام المصنع المرصع كما يستحسنون النقش على

اليد والصبغ الاحمر على البنان . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية والانامل المنظفة بالمبرد والمقص وبقية الآت التنظيف وبين اليد المنقوش عليها نقشاً وهشياً والانامل المخضبة بالحناء لا يخفى على اهل النظر والذوق ولا امم متوحشة لا يستحلون العرائس الا اذا كثر على اجسادهن النقش والوشم وشرحت خدودهن وكسرت اسنانهن ليحصل فيها الفلج وثقبت انوفهن وشفاههن واذانهن ليعلق فيها الاقراط والحلقات فهم يبدلون خلقة الله بما يرونه حسناً بحسب اذواقهم . وكذلك الادباء يعدلون بالكلام عن السوق الطبيعي الى تلك التشابيه والاستعارات واذا نظرت الى مدحهم رأيته ايضاً يدور حول طول النجاد وكثرة الرماد كقوله

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد اذا ما شتى

فهذا البيت يليق مدحاً حقيقياً بشيخ قبيلة بدوية او بملك امة متوحشة من امم أواسط افريقيا لا في كل ممدوح . واذا مدح به ملك امة لها حظ من الحضارة ينقلب المدح ذماً . وهكذا يقال في بقية فنون الكلام وضروبه مثل الهجاء والرثاء والاستماحة ، والشفاعة ، والشكر ، والاستعطاف ، والافتخار ، وبث الشكوى ، والمواعظ ، والحجج لاسيما الوصف وهو اعمها واكثرها ضروباً فان كل فن من هذه الفنون يدور حول تشابيه معلومة واساليب مدرسية يندر فيها الاحساس الشخصي والانفعال النفس وانما هي تقاليد يتبع فيها الخلف السلف

فيكتور هوكو وأهل طريقة لا يرون شيئاً من الحسن في هذه التشابيه والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعاني التي ليست بطبيعية . بل يجدونها من المعاني السخيفة الغير المعقولة . خرج بها اصحابها عن الذوق السليم وعن دائرة الطبيعة . وشوهوا وجه الكلام بتلك الاستعارات كما شوهوا وجه العروس وبدنها بالنقش والوشم والصبغ ثم جاؤا يقولون (نالت على يدها ما لم تنله يدي) . ورأينا في معرض بارنوم الذي يطوف به صاحبه مدن العالم القديم والجديد شخصاً من المتوحشين وشم جميع بدنه فكان يتجلى امام الناظرين كأنه لابس ثوباً مبرقشاً . والوشم هو ان يغرز الجسد بابرة ثم يذر عليها النؤور وهو النيلج (نبات النيلة) . وفي الحديث لعن الله الواشمة والمستوشمة .

١ — المدائح والمطربات

هو أول ديوان نشره فيكتور هوكو في الشعر وافتتحه بمقدمات نثرية بليغة ترجمنا احداها لمناسبتها المقام ومنها يعلم ان تعبيرنا عن الأود والبالاد بالمدائح والمطربات فيه تساهل لان قصائد هذا الديوان لا تقتصر على المدح والغزل بل فيها أيضاً الرثآء والهجآء ممزوجة بعضها ببعض

قال فيكتور هوكو :

هذا ديوان في الشعر الموسيقي (الغرامي) . فيه نوعان من أفانين الشعر أحدهما (اود) ويدخل تحته جميع المنظومات المشتملة على الهامات دينية أو مطالمات قديمة أو المترجمة عن واقعة عصرية أو عن تأثر شخصي . والثاني (بالاد) وهو نوع مخالف للفرع المتقدم . ومنظوماته انما هي مسودات فن هوائي . وهي عبارة عن ألواح مصورة وخيالات وأحلام ومناظر بديعة وحكايات دارجة وأحاديث خرافة وأساطير ووسوسة . والقصد من نظمها اعطآء فكر عن ماهية الاشعار والقصائد التي نظمها في القرون الوسطى شعرآء التروبادور المتقدمون الذين هم رواة الشعر في عالم النصرانية . وكانوا لا يملكون من الدنيا الا السيف والرباب ويطوفون على الامرآء في قلاعهم وقصورهم ويتضيفون على موائدهم وينشدونهم الاشعار استجداء لاحسانهم . ولو لم يكن في التعبير فخفخة لقال المؤلف بأنه وضع روحه في الاود وتخيله في البالاد . على انه لا يعبأ بتقسيم الشعر الى أنواع وأفانين ولا بتصنيفه أصنافاً متباينة . لان حقيقة الشعر واحدة مهما اختلفت عروضه وأدواره . ولذا فهو لا يبالي باعتراض من يزعم ان ما ورد في هذا الكتاب ليس هو في شيء من الاود ولا من البالاد . — كما قيل عن شعر المتنبي والمعري . لانهما لم ينسجا على منوال شعر الجاهلية ولا حافظا على الاساليب القديمة . — فدعهم يقولون ما يشاؤن ويسمونها بما يشتهون من الاسمآء فان العبرة للمسمى لا للاسم . ونسمعهم يتشدقون كل يوم بصلاحية الفن الفلاني من فنون الشعر . وأوفقية الفن الآخر . ويقولون بمحدودية هذا وبوسعة ذاك . ويمنعون في فن التراجيديا ما يجيزونه في فن الرومان .

و يسمحون في نوع الغناء بما يحظرونه في نوع الاود ... الخ . فمن سوء حظ هذا أنه لا يفهم شيئاً مما يقولونه و يفتش في كلامهم عن المعاني ولا يرى فيه الا التشدق بالالفاظ فالذي يظهر له ان ماهو في الحقيقة ونفس الامر جميل صحيح يكون جميلاً وصحيحاً في كل مكان . وما كان دراماتيقيا أي فاجعاً في قصة من القصص يكون دراماتيقياً أيضاً في رواية ممثلة على المرسح . وما كان موسيقياً أي غرامياً في دور (قو بله) من أدوار الشعر يكون موسقياً أيضاً في سمط (ستروف) من أسماط الشعر المنظوم أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً . والحاصل التميز الوحيد الحقيقي في محصولات الفكر انما هو التميز بين الحسن والقبيح . والفكر أرض مخصبة لم تفتلح تبغي محصولاتها النماء فيها بحرية . أعني حسب التصادف بدون أن تصنف صنفاً صنفاً أو تجعل صفاً صفاً في أحواض مصنعة كما جعلت الازهار في البستان الصناعي . أو كما جمعت نوابغ الكلم في رسائل البيان وقيدت المنتخبات في سفائن الاشعار

ومع ذلك فلا ينبغي لك أن تظن هذه الحرية مستلزمةً للتشويش . كلا بل هي بالعكس باعثة على حسن الانتظام . وايضاحاً لذلك نقول : تأمل في الحديقة الملوكية التي في قصر فيرسايل بالقرب من باريس تجدها في غاية من التسوية والتعشيب والتقضيب والتنظيف والجرف والكري والترميل مشتملة على كثير من الشلالات الصغيرة ، والبحيرات الصغيرة ، والروضات الصغيرة ، وفيها من التصاوير النحاسية ما هي على هيئة آلهة البحر ، نصفها سمكة والنصف الآخر انسان . وهي سابحة على الماء ومتجمعة فوق بحار صناعية جلبت من نهر السين بصرف النفقات الباهظة . وفيها من تماثيل المرمر والرخام ماهو على صورة آلهة اليونان والرومان ، وهم يغازلون حور الجنان ، و يعزفون بالمزامير والعيدان ، وقد أحدقت بهم أشجار السرو العالية على هيئة رمزية . وترى شجر اللبان في شكل اسطواني ، وشجر الليمون في شكل كروي ، وشجر الآس في شكل منحرف ، وأشجاراً كثيرة لم تكن في أصل خلقتها الطبيعية على أشكال منتظمة ولكنها اقتضبت بمقص البستاني وهندمت بآلاته الزراعية . ثم قايس بفكرك بين هذه الحديقة المصنعة و بين غابة عذراء من غاب

العالم الجديد تجد فيها أشجاراً ونباتات على سائر الاشكال من غياض ، وآجام وآيك ، ودوح ، وكلاء [١] وحشيش ، وعشب طويل ، ونبات متعرش بلبالب وشوك وأوراق مختلفة . وفيها مروج نضرة كأنها بين تلك لاشجار الصلبة الشامخة شوارع أو طرق واسعة لا يسقط فيها نور الشمس ولا يمتد ظل الشجر الا على بساط من الخضرة . ويطير في تلك الغابة ألف نوع من الطير بألف لون من الريش . وتجري فيها أنهار كبيرة تقتلع الاشجار وتسحب جزراً مكللة بالازهار . وتتدفق المياه الجارية من مكان أعلى الى مكان أسفل فتحدث الشلالات . ويتخلل الضياء بين تلك المياه الساقطة فينقلب الى قوس قزح . ويتألف من هذا الهدير والخرير والتغريد والزئير الحان وحشية لامثيل لها . — فنحن لا نقول : أين العظمة ؟ أين العزة والجبروت ؟ أين الجمال الحقيقي ؟ بل نسأل فقط : أين الانتظام وأين عدم لانتظام ؟ فهناك مياه حُبست وحوّلت عن مجراها الطبيعي لتتدفق من ينابيع صناعية وتركد في حياض محفرة ثم تتأن فيها . وهناك أيضاً آلهة تحجرت ، وأشجار قامت من الارض التي انبتت فيها ، ونقلت من الاقليم الذي ربيت فيه ، وحرمت من شكلها الطبيعي ، ومن ثمارها الطيبة ، واكرهت على تحمل منجل البستاني يفعل فيها حسب اهوائه ومشيئته ، ويديرها كيف دار حبل استقامته ، فالانتظام الطبيعي مضاد ، معكوس ، مقلوب ، مخروب ،

وأما هنا فبالعكس كل شيء خاضع لناموس لا يتغير . وفي كل شيء آية على وجود اله حي [٢] . وقطرات الماء تنحدر في مصبها وتجري أنهاراً تجتمع وتصير

---

(١) واشهرها غاب اميركا وغاب افريقيا ومنها غابة الكونغو . والغاب جمع غابة . والغياض جمع غيضة وهي مغيض ماء يجتمع فينبت فيها الشجر وتجمع ايضاً على اغياض . والآجام والاجمات جمع اجمة وهي من القصب . والايك جمع ايكة وهي الشجر الكثير الملتف . والدوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة من اي نوع . والكلاء هو العشب رطباً كان او يابساً . والحشيش هو الكلاء اليابس . اه مختار الصحاح

(٢) وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد (ابو العتاهيه)

بحارًا . وبذور النبات يختار الارض الصالحة له ويصير أحراجًا . وكل نجم[1] وكل شجرة صغيرة أو كبيرة تنبت في فصلها وتنمو في أرضها وتثمر ثمرتها فتنضج في أوانها . فكل مافي هذه الغابة جميل حتى الشوك . فنسأل أيضًا أين الانتظام ؟

فاختر اذًا بين أحسن ما أتت به الصناعة البستانية وبين مصنوعات الطبيعة ، بين ماهو جميل بحسب الاصطلاح وبين ماهو جميل بغير القواعد الاصطلاحية بين أدب مصنع مرصع وبين شعر مبتكر لم ينسج على منواله أحد

ربما قال معترض بأن الغابة العذراء البعيدة عن الناس قد يربض فيها ألف حيوان مفترس وأما حياض الحديقة الصناعية التي استنقصت المياه فيها فلا تحتوي في الغالب الا على قليل من الضفادع المستقذرة . فهذا الاعتراض وارد مع الاسف . ولكن اذا خيرنا فنحن نفضل التمساح المفترس على الضفدع القذر . كما نفضل بربرية الشاعر الانكليزي شكسبير على خسافة عقل الشاعر الفرنساوي فاميسترون (ولد في طولوز ١٦٥٦ — ١٧٢٣ م)

ومن المسائل المهمة المقتضى بيانها هو ان الانتظام يمتزج بالحرية في الادب كما يمتزج بها في السياسة . لا بل الانتظام نتيجة للحرية فيهما جميعًا . ولكن ينبغي التفريق بين الانتظام وبين رعاية القواعد . فرعاية القواعد أمر لا يتعلق الا بالشكل الخارجي . وأما الانتظام فينتج من باطن الاشياء أي من ترتيب العناصر الاصلية التي في الموضوع المبحوث عنه ترتيبًا يستحسنه الذوق . فرعاية القواعد هو تأليف مادي ووضع انساني . وأما الانتظام فهو أشبه بالامر الالهي . فهاتان الخاصتان المتخالفتان في ذاتهما كثيرًا ما توجد احداهما بدون الاخرى . فالكنيسة المبنية على القالب القوطي يظهر لنا فيها انتظام بديع رغمًا عن سذاجتها وعدم رعاية قواعد البناء فيها . وأما الابنية الفرنساوية الحديثة التي بنيت على قوالب أبنية اليونان والرومان وقلد البناؤن في بنائها تقليدًا أعجميًا بغير ذوق ولا مهارة فتظهر لنا غير منتظمة رغمًا عما في بنائها من رعاية القواعد المعمارية . فالمؤلف العادي لا يتعذر عليه تصنيف تأليف

(١) النجم من النبات مالم يكن على ساق

على حسب القواعد . وأما وضع الانتظام في التأليف فلا يتيسر الا لذوي العقول الكبيرة من المؤلفين . لان الخلاّق[1] الذي ينظر من الاعلى ، ينظم . والمقلد الذي ينظر من القرب ، يطبق على القواعد . فالاول يعمل بمقتضى ناموس طبيعته . والثاني يتبع قواعد طريقته . فالصناعة الهام للاول . وعلم للثاني . والحاصل رعاية القواعد هي ذوق التوسط[2] . والانتظام هو ذوق القريحة . ومن هنا يفهم الفرق بين أدب الطريقة الرومانية وبين أدب الطريقة المدرسية

واعلم ان الحرية في هذا المقام لا ينبغي أن تصل الى الفوضوية . وان الخروج عن الاسلوب لا يقتضي أن يكون وسيلة لتجويز اللحن والغلط . فبقدر ما يتهور المؤلف في الخروج عن الاسلوب يلزم أن لا يكون في تأليفه لومةٌ للائم . لانه اذا أراد التفوق في حقّ واحدٍ على غيره يجب أن يكون معه عشرة حقوق زائدة عليه . وبقدر ما يهمل علم البيان والمعاني يجب عليه أن يراعي علم النحو والصرف ولا يجوز له خلع ارسطوطاليس البياني[3] الا اذا اجلس مكانه فوجيلاس النحوي[4] . وتنبغي محبة (صناعة الشعر) التي الفها بوالو لاجل انشائها على الاقل ان لم يكن لاجل مافيها من القواعد . فالكاتب الذي له أقل اهتمام بما يكتبه يجتهد دائماً بأن يصفي منطقه بدون أن يمحو الصفة الخصوصية التي يفصح بها تعبيره عن شخصية فكره . فادخال التعبيرات الجديدة في الكلام ما هو الا دليل على عدم المقدرة . واللحن في الاعراب لا يأتي بمعنى جديد[5] . فالانشاء مثل الزجاج كلما صفا تلألأ

---

(١) اي تخلق المعاني (٢) اي المتوسط في الادب الذي لم يبلغ شاو المتضلع فيه

(٣) وقد لخص ابن رشد كتاب ارسطوطاليس في الشعر وطبعه المستشرق فوستو لازينو في فلورانسه سنة ١٨٧٣ (٤) نحوي فرنساوي الف كتاب (الملاحظات على اللغة الفرنساوية) (١٥٨٥ — ١٦٥٠) وهذا ما قاله الجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع خيرًا في مصر « ان تكون الالفاظ مما يتعارفه الناس في استعمالهم و يتداولونه في زمانهم ولا يكون وحشيًّا غريبا ، او عاميًّا سخيفا ، سخفه بازالته عن موضوع اللغة واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة ، كقول العامة (اشغلت) و (افسد) (٥) لا كما يقولون ليس على المطرب ان يعرب

ربما أوضح مؤلف هذا الكتاب في غير هذا المحل كلما أشار اليه هنا . ولكنه قبل أن يختم كلامه يستميح القراء في بيان ان رأي التقليد (أي رعاية الاسلوب) الذي وصى المتقدمون باتباعه حفظاً للطرق الادبية ، ظهر له دائماً بأنه بلاء على صناعة الادب . فهو لا يجوّز للكتبة التقليد ولا لاساليب الطريقة الرومانية فضلاً عن الطريقة المدرسية . لان الذي ينسج على منوال شاعر من شعراء الطريقة الرومانية يصير بالضرورة مدرسياً ما دام انه يقلد . فسواء عليك كنت صدى الشاعر الفرنساوي راسين أم كنت انعكاساً لنور الشاعر الانكليزي شكسبير فما أنت أبداً الا صدى وما أنت الا انعكاس . ولو تيسر لك النسخ بالتمام على صورة شاعر من ذوي القريحة . تفوتك دائماً غرابته[1] أي قريحته . فلنعجب بأكابر الشعراء ولا نقلدهم . ولنعمل بطريقة أخرى . فان نجحنا فنعم . وان سقطنا فما الاهمية ؟

يوجد مائعات للتصبير اذا غطست فيها زهرة أو ثمرة أو عصفورة وتركتها مدة تكسوها قشرة سميكة حجرية وتحفظ في الحقيقة اشكالها الاصلية . ولكن رائحة العطر ، ولذة الطعم ، وحركة الحياة فقدت . فالتعاليم المتشدق بها ، والقياسات المنطقية الاسكولاستيقية ، وسريان داء العادة ، وجنون التقليد ينتجن عين هذه النتيجة . فاذا دفنت فيهن قواك الغريزية وتخيلك وفكرك فلا تخرج منهن أبداً . وما تستخرجه منهن ربما تجده محافظاً على شيء من ظاهر العقل والقريحة والذكاء ولكنه يكون متحجراً كتلك الاشياء المصبرة

فأصحاب الطريقة المدرسية يقولون « يحيد عن طريق الحقيقة والجمال كلّ من لم يتبع الاثر الذي طبعه باقدامهم السالكون قبله في هذا الطريق » فهذا خطأ . وأصحاب الطريقة المدرسية يخلطون بين العادة والدأب وبين صناعة الادب . ويمشون على أثر العجلات توهماً بأنها الطريق

---

(١) يقول ادباء العرب هذا البيت من الغريب المنكر . وراسين كما لا يخفى هو امام الطريقة المدرسية وشكسبير امام الطريقة الرومانية

فالشاعر لا ينبغي أن يكون له الا نموذج واحد وهو الطبيعة ودليل واحد وهو الحقيقة . ولا ينبغي له أن يكتب مع ما كتب بل مع نفسه وقلبه . ومن جميع الكتب المتداولة بأيدي الناس ينبغي له درس كتابين فقط . أوميروس والتوراة . فهذان الكتابان المحترمان — اللذان هما أول الكتب تاريخاً وقيمةً وكادا يكونان قديمين كالدنيا — هما في حد ذاتهما عالمان للمعاني . ويجد فيهما الكاتب بنوع ما الخليقة بأجمعها مصورةً في شكل مضاعف ففي أوميروس مصورة بقريحة الانسان وفي التورارة بالهام الله

انتهى في اكتوبر سنة ١٨٢٦

وبعد المقدمات النثرية البليغة ورد في هذا الديوان المنظومات وهي تزيد على خمسين منظومة بديعة اظهر فيها من رقة الالفاظ وجودة المعاني وقوة التخيل والتصور ما حمل ادباء العصر وشعراءه على الاقرار والاعتراف له بالفضل والشاعرية وبالقبض على زمام الصناعة الادبية . وأحسن هذه المنظومات المنظومة التي عنوانها « فانده » وهو اسم ايالة على شاطىء البحر المحيط في شمال بوردو اشتهرت ايام الانقلاب الكبير بالحرب الاهلية التي حدثت فيها بين حزب الجمهورية وبين المتعصبين للملوك من الاعيان والرهبان . وكذا المنظومة التي عنوانها (عذارى فيردون) وفيردون مدينة على الحدود الالمانية ومشهورة في التاريخ قديماً وحديثاً . وأبدع فيكتور هوكو في رثاء الذين قتلوا ونكبوا في تلك الحروب الاهلية وكان اذ ذاك على مذهب الكاثوليكيين وسياسة الملوكيين . ومن قصائد هذا الديوان ومنظوماته البديعة (لويس السابع عشر) و(اعادة تمثال هانري الرابع) و (موت دوق برّي) و (ولادة دوق بوردو) و (تعميد دوق بوردو) و (جنازة لويس الثامن عشر) و (تتويج شارل العاشر) و (الى عمود ميدان فاندوم) و (الى والدي) و (حرب اسبانيا) . . . الخ

٢ — الشرقيات

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقدمتين وختمه بشروح مفيدة وأورد فيه احدى

وأربعين منظومة وقال بأن الباعث على نظمها اتجاه أنظار الادباء نحو الشرق بعد ان كانوا منذ عهد لويس الرابع عشر لا يبحثون الا في آداب اليونان والرومان ومعارفهم . ففي القرن التاسع عشر اقبلوا على درس لغات الشرق وآدابه وتاريخه وعلومه . فوجدوا فيه الافكار والتخيلات عبرانية ، تركية ، يونانية ، فارسية ، عربية ، اسبانية . لان اسبانيا جزء من افريقيا وافريقيا جزء من أسيا لوجود مشابهة وعلاقة بين كل منهما والاخرى . وشبه مافي هذا الديوان من المعاني والتخيل ببدن اسبانيا القديمة المشادة على نمط المدن الشرقية . ووصفها بأن فيها منتزهات لطيفة تظللها أشجار الليمون وتجري من تحتها الانهار . ويسطع نور الشمس على مياديها الواسعة المعدة للاحتفال بالمواسم والاعياد وأزقتها ضيقة موصلة بعضها مظلم وبعضها غير نافذ ولا مستقيم . وأبنية دورها من جميع الازمان وعلى سائر الاشكال منها العالي والمنخفض والمسودّ والمبيضّ والمصبوغ والمنحوت والمنقوش . واتصلت العمارات بعضها ببعض من دور وقصور وفنادق وأديرة وثكنات للعساكر . وكل منها يختلف عن الآخر في طرز البناء والاسلوب المعماري ويدل على نوع غريب قائم بذاته . وأسواقها غاصة بالانام يعلو فيها الصياح والخصام . واذا دخل الاحياء مقابرها وقفوا سكوتاً كأنهم أموات وفيها المراسح والكنائس والمشاق التي بقي أثرها من الازمان الغابرة . وفي وسط كل مدينة كنيستها الجامعة مبنية على القالب القوطي المعروف . وهناك أيضاً الجوامع قائمة بين اشجار النخيل والجميز وفيها مغشاة بالنحاس والقصدير وأبوابها مصبغة وحيطانها مجلاة منقشة ونوافذها عالية وعلى كل باب كتبت آية قرآنية . ورصفت الارض ورصعت الجدران بالفسيفساء . فأصبح كل جامع من هذه الجوامع كأنه زهرة كبيرة تفتحت في نور الشمس وفاح طيبها في الجو .

وكان تأليف هذا الديوان في اثناء حرب الموره وأستقلال اليونان لان الثورة ظهرت سنة ١٨٢١ في الموره وسرت الى بقية الولايات والجزر اليونانية وأستولى الثائرون على اثينا وأسسوا فيها حكومتهم وعينوا ماورو قورداتو رئيساً عليهم . وكان من جملة زعماء الثورة ربان سفينة يونانية يدعى فناري هجم ليلة ١٨ و ١٩ حزيران

سنة ١٨٢٢ على الاسطول العثماني الراسي على جزيرة ساقز واحرق بعض مراكبه . فساقت الدولة العلية على اليونان رشيد باشا من الروم ايلي وابراهيم باشا من مصر وكانت العساكر المصرية مدربة على النظام الجديد . فخرجت بالمراكب الى شبه جزيرة المورة واخمدت ثورتها واسترد رشيد باشا اثينه وكادت الفتنة تنام لو لم توقظها أوروبا باحراق المراكب العثمانية . وذلك ان الافرنج لما رأوا انخماد ثورة اليونان قامت الجرائد والشعراء تهيج الافكار العمومية في اوربا على العثمانيين وتقتصر لارباب الفساد والعصيان من اليونانيين . فتداخلت في المسئلة انكلتره وروسيا وفرانسا و بعثوا اساطيلهم فأحرقت الاسطول العثماني وأغرقته بدون اعلان حرب على الدولة العلية ولا مراعاة للحقوق المتعارفة بين الملل والامم . وجرت هذه الحادثة المؤلمة بتاريخ ٢٠ تشرين اول سنة ١٨٢٧ امام فرضة نافارين في جنوب المورة واشتهرت في التاريخ بواقعة نافارين . ثم انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا واخلت العساكر العثمانية بلاد اليونان وعاد ابراهيم باشا لمصر وصارت اليونان ايالة ممتازة تحت سيادة الباب العالي ثم اعلن استقلالها تماماً

فشعراء الافرنج لم يقتصروا كشعراء العرب على مدح الامراء والتغزل والرثاء بل هم يبحثون في السياسة الداخلية والخارجية ويروجون الرأي الذي يرونه . ولذا اتبع فيكتور هوكو في السياسة خطة استاذه شاتوبريان وخطة اللورد بايرن . وهذا الشاعر الانكليزي بعد ان خدم السياسة اليونانية بقلمه أراد ان يجرب فيها سيفه و يثبت اقتداره في ميدان الحرب كما أثبته في ميدان الادب . فنزل من قصور لوندره الى اكواخ ميسولونكي من بلاد اليونان ومات فيها بالحمى . وتهور في فعله وخاطر بنفسه كما خاطر المتنبي حينما خرج قاصداً الكوفة سنة ٣٥٤ فلقيه اعراب من عشيرة فاتك بن الجهل الاسدي وأخذوا مامعه وانصرفوا . فقال له مفلح وكان من اتباعه أأنت القائل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

فقال بلى وأظهر الشجاعة حيث ينبغي اظهار الحزم والرأي وكر على الاعراب

كرة الفوارس فقتلوه وقتلوا ابنه معه . وأسس الانكليز جمعية دعوها جمعية بايرن (بايرن سوستي) وغايتها حماية المسيحيين في الممالك العثمانية كما هو مقاصد هذا الشاعر وأمانيه ولهذه الجمعية شعبة في الاستانة وأخرى في أتينه وغيرها ولها علاقة بالمسئلة المكدونية كما كان لها علاقة بالمسئلة الكريدية

وتوهم شعراء الافرنج في انتصارهم لليونان ان الموجودين في هذه العصور هم من نسل اولئك الابطال والفلاسفة الذين انقرضوا في القرون الغابرة واورثوا المسلمين علومهم وفلسفتهم . فهذا هو السبب الذي حمل فيكور هوكو على التعصب لليونان على العثمانيين وعلى تحريضه أمم النصارى على قتال المسلمين ومناداته بالحرب الصليبية . وكان لم يزل في سن الشباب وعلى سياسة المذهب الكاثوليكي والحزب الملوكي . ولم يك بعد اهتدى للتوحيد الفلسفي ومحبة الانسانية ولا لاتباع الانصاف الذي ذكره المعري بقوله

والدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لابي الحق ان وجبا

وفعل الافرنج مافعلوه من الانتصار لليونان بلا مشوق ولا مستصرخ فظن الارمن والبلغار في يومنا بأنهم يتمكنون من استمالة اوروبا اليهم بالاستصراخ والتصويت والاناشيد الحماسية فعقدوا في أوروبا المجتمعات وخطبوا فيها الخطب المهيجة على غير فائدة وبعد انقضاء المعرض الاخير بباريس بعث المقدونيون شاعرهم المفلق ميخايلوفسكي مع وفد من ادبائهم لامهات مدن اوروبا فكان يكثر من انشاد القصائد الشرقيات لفيكتور هوكو ومن انشاد اشعار بايرون الانكليزي ومن تنظير هذه القصائد والنظم على منوالها باللسان البلغاري ثم ترجمتها للفرنساوية وتلاوتها على الحاضرين في المجالس بكل شوق وحماسة وطنية وهيجان عظيم ومع ذلك لم تنفعل أوروبا ولا تأثرت الافكار العمومية فيها كما تأثرت ايام استقلال اليونان لاسباب كثيرة منها ان الجمال لا يتكرر . والامم أصبحت تنظر لمنافعها الاقتصادية والتجارية اكثر من التفاتها للحماسة الجاهلية . وتوهم شبان مصر ماتوهمه هؤلاء أيضاً أيام بعثوا صاحب جريدة اللواء الى باريس يحمل صورة عظيمة تمثل مصر وهي في الاسر

وتحتها أبيات عربية تستغيث فيها من مجلس النواب الفرنساوي كما هو معلوم ومطلع الابيات : افرنسا يامن نصرتِ البرايا . . . . انصري مصر ان مصر بسوء . . . الخ

اما عنوان المنظومات التي في هذا الديوان فهي « الصاعقة » و « قناري » سمى هذه المنظومة باسم احد زعماء الثورة المتقدم ذكره ووصف بها المحاربات البحرية وصور فيها اعلام الدول وهي تخفق على المراكب الحربية . وقصيدة « رؤس السراي » نظمها سنة ١٨٢٦ على أثر الاشاعة الكاذبة التي اشاعتها الجرائد عن موت قناري بقنبلة اصابته في محاربه ميسولونكي وعن ارسال رأسه مع رؤس رفقائه الى الاستانة . ووصف في هذه المنظومة السراي وما فيها من السراري والطواشية والبذخ والقصف ورثى قناري ورفيقين له الجمع رثاء وحرض أمم النصارى على قتال المسلمين . و (نافارين) صور فيها محاربة نافازين العدوانية واظهر الشماتة بحرق المراكب العثمانية ومن ابياتها قوله « مضت ست سنوات ونحن نرى افريقيا تركض لمساعدة اسيا على أمة تعلمت كيف تموت . وابراهيم الذى لا يسكنه شيء طار من البرزخ الى السطح كانه صقر بلا وكر ، كانه ذئب يحكم في حظيرة الغنم . فهو يجري الى حيث تستدعيه الغنيمة فاذا عاد الى خيمته رمى بيده الرؤس الى السراي . »

ومن منظومات هذا الديوان أيضاً (حض المفتي على الجهاد) و (كدر الباشا) صور فيها جلوس الباشا في دائرة الحرم حزيناً وارتباك رجال المعية والخدام والخصيان وتساءلهم عن سبب حزنه وعما ينقصه من النعم التي هو غريق فيها بين رقص الجواري وغناء الغانيات في قصور عاليات مفروشة بالحرير والديباج تعبق فيها روائح المسك والعنبر ودهن الورد . فوجدوا كدره لا على خراب البلاد ونهب العباد وكثرة الظلم والاستبداد وانما هو على موت خصيه الحبشي . ومن هذه المنظومات أيضاً (اغاني قرصان البحر) صور فيها كيف كانت المراكب تجري في البحر المتوسط وتغير على مافي سواحله من بلاد الافرنج وتأسر البنات والغلمان وتبيعهم في السرايات وللباشاوات . ومنها (الاسيرة) و (ضياء القمر) و (النقاب) صور في هذه المنظومة غيرة الاخوة على اختهم وقتلها لانكشاف الحجاب عنها بسبب الهواء وهي مارة في

الطريق امام باب الجامع وبعد قتلها كفنوها وقالوا لها هذا حجاب لا يكشف ستره، ونحو ذلك من القصائد

ولم يدع مدينة من مدن الشرق المشهورة الا وذكرها في هذا الديوان. وأكثر من ذكر مدن ايطاليا واسبانيا ادخالاً لهما في الشرق. وكان لهذا الديوان رواج عظيم حينما نشر لعلاقته اذ ذاك بالمسائل السياسية الحاضرة. اما اليوم فقد ذهبت طلاوته وزال رونقه وقلت الرغبة فيه. لان فيكتور هوكو فضلاً عما كان عليه اذ ذاك من التغرض والتعصب الاعمى لم ير الشرق بعينه ولا عرفه الا بدرس الكتب ومطالعة ما نظمه الشعراء مثل شاتوبريان وبايرون وكوتيه ناظم (ديوان اورينتال) وامثالهم وطالع ايضاً ما ترجم من كلام الحافظ الشيرازي والشيخ سعدي صاحب الكلستان. ومن شروط اهل الطريقة الرومانية الكتابة والنظم عن رؤية وانفعال نفسي ولذا يجدون شعور فيكتور هوكو في الشرقيات مبهماً وكلامه مصنعاً لا طبيعياً. بخلاف القسم المتعلق بالاندلس واسبانيا من هذا الديوان فلم يزل له رونق واعتبار عند أدباء الافرنج. لان الشاعر زار اسبانيا في صباه وقرأ مع أولادها في المدرسة فساعدته ذاكرته على وصف ما فيها بأحسن صورة وأبدع أسلوب. ومنظومته التي عنوانها (غرناطه) هي السحر الحلال كانها كتاب في الجغرافية أفرغ في قالب شعري ومنها يتضح تبحر الشاعر في علوم الجغرافيا والتاريخ والآثار القديمة والفلسفة وقد ترجمنا هذه القصيدة بالحرف لتعلم أساليب الشعر الافرنجي ومناحيه:

٢ غرناطه

لا توجد مدينة لا بعيدة ولا قريبة، لا عربية ولا اسبانية تنازع غرناطةَ الجميلةَ في تفاحة الحسن[1]. ولا تظهر اكثر منها ابهة شرقية ولا رشاقة تحت سماء الطف من سمائها. قادس فيها النخل. مرسية فيها اشجار البرتقان. جيان فيها القصر القوطي ذو القلل الغريبة. اغريدة فيها الدير الذي بناه القديس ادمون. سيغوفه فيها الهيكل الذي

(١) اشارة الى تفاحة الحسن التي تخاصمت عليها آلهات اليونان كما فصل خبرها في الاساطير اليونانية

تقبل اعتابه وفيها قناة قائمة على ثلاثة صفوف من القناطر تجر اليها المياه من قمة الجبل • ليير فيها الابراج • برشلونه فيها عمود على رأسه منارة معلقة على البحر • تودله (تطيله) راعية لصداقتها لملوك اراغون وهم في قبورهم العتيقة وحافظة لصولجانهم الحديد • طلوشه فيها سوق الحدادين المظلم كان دكاكينه في الدجا منافس على جهنم

السمكة التي شفت في غابر الازمان عين توبيا من العماء تلعب في جوف الخليج الذي رقدت فيه (فونتارابي) [1] • اليقانت تمتزج فيها المآذن بالجرسيات • قومبو ستله فيها قديسها • قرطبه فيها الدور العتيقة وفيها الجامع الذي تحار العين في عجائبه • مادريد فيها نهر مانزانارس • بلباو تغطيها امواج البحر ويكسي المرج الاخضر سورها المسودّ من الهرم • مدينة ذات الشجاعة العظيمة تخفي فقرها من كبرها تحت رداء دوقاتها وليس لها شيء سوى شجر الجميز لان قناطرها الجميلة من بقايا العرب وقنوانها من بقايا الرومان • بلنسية فيها جرسيات كنائسها الثلاثمائة • القنطرة ذات التقى اسلمت لهبوب النسيم رايات الترك المعلقة على عواميدها [2] • سلمنكه تجلس وهي ضاحكة على ثلاث تلال وتنام على نغمات الاوتار وتستفيق مذعورة من جلبة اولاد المكاتب الصغار • طرطوشة غالية على القديس بطرس • بويسرده الغنية فيها المرمر مثل الاحجار • تويه تفتخر بقلعتها المثمنة الشكل • طرّاكونة تفتخر باسوارها التي بناها أحد الملوك • سموره يجري من تحتها نهر دورو • طليطلة فيها القصر العربي • اشبيليه فيها جيرالدة • برغه وضعت ثروتها على قمتها • بينافلور مركيزه • جيرونه دوقة • بيغاره كانها زهدت في الحلي الفخيمة • بامبلونه المظلمه متهيئة دائماً للحرب وقبل ان تنام على ضوء القمر تقفل الابراج المحاطة بها كالمنطقة

فهذه المدن الاسبانية اما منثرة في السهول او مرتفعة على الجبال • وفي جميعها قلاع

---

(١) توبيا من اتقياء بني اسرائيل ذهب حينما اسرهم شلمنصر الى نينوى وعمي بصره فخرج ابنه يفتش له عن دواء واجتمع بالملك اسرافيل عليه السلام فوصف له سمكة يأخذ مخها ويكحل به والده ففعل وعاد اليه بصره وعاش بعد اربعين سنة أخرى وكتبت سيرته في رسالة ألحقت بالتوراة • وأما فونتارابي فقيل معناها عين العرب وقيل غير ذلك وهي على الحدود الفرنساوية من جهة البحر المحيط

(٢) لعل مراد الشاعر الرايات التي يحملها النصارى من الاراضي المقدسة التابعة للترك ويعلقونها على عواميد الكنائس تعبداً

لم تضرب يد الاعداء فيها بالنواقيس • وفي جميعها كنائس جامعة لها جرسيات حلزونية الشكل [1] • ولكن غرناطة فيها الحمراء

الحمراء وما ادراك ما الحمراء قصر زوقته الجن وملأته بالمحاسن كانما هو في الحلم • بل وقلعة ذات شرف مخرمة ، مقلبة اذا جن الليل سمعت منها اصواتاً سحرية واذا طلع القمر من وراء اقواسها العربية الكثيرة وانعكس نوره على الجدران احدث عليها نقوشاً بيضاء عجيبه • غرناطه فيها من العجائب اكثر ما في الرمانة من الحب الذي لونه كلون العقيق وينبت الرمان في وديانها بكثرة • غرناطه اسم على مسمى • غرناطه اذا اشتعلت نار الحرب فقعت في وجوه اعدائها اشد من فقع القنبلة الحمراء بمائه مرة

اذا اجابت (فيفاتوبن) (فيقاقونلد) بدفها المزين بالاجراس او تتوجت (جنة العريف) بالنور وامست كانها خليفة ورفعت في ظلام الليل قمتها المضيئه فلا شيء أجمل من ذلك ولا شيء اعظم من ذلك • وتعزف الابواق من (أبراج العقيق) كانها جمهور نحل تسوقه الرياح • وفي القوافة نواقيس مهيئة دائماً لاعلان الافراح • وتطنطن في ابراجها الافريقية لتوقظ من في البيضاء • غرناطة لا تجاريها الرقباء ولا في شيء • غرناطة تغني الاغاني الرقيقة بارق مما هي • وتصبغ دورها بابهى الالوان • ويقال بان النسيم تحبس انفاسها اذا نثرت غرناطة في ليلة من ليالي الصيف نساءها وازهارها في سهولها

جزيرة العرب جدتها • والعرب الرحل المقتحمون انما قطعوا اسيا وافريقيا من اجلها فقط • ولكن غرناطة كاثوليكية • غرناطة ضحكت منهم • غرناطه تلك المدينة الظريفة لو امكنها ان تكون اثنتين لكانت اشبيلية أخرى • انتهى

فان كان هذا وصف غرناطة عند فيكتور هوكو فكيف يكون وصف اشبيلية • ولا يخفى ما في تعداد هذه المدن الاسبانية من الاهمية في تاريخ آداب العرب لانتساب الكثير من العلماء والادباء اليها كالشريشي شارح المقامات والشاعر الاشبيلي والشاطبي ناظم الشاطبية وكثير من امثالهم • وأما قوله اذا اخرجت غرناطة نساءها وازهارها للسهول تحبس النسيم انفاسها فهو من تشابيه اصحاب الطريقة المدرسية على حد قول العرب اذا برزت الحسناء احتجبت الشمس خجلاً ونحو ذلك

اما غرناطة فهي في اسفل جبال نفاده (سيبرانفاده) وعلى مجتمع نهري دارُو

(١) لانها كانت مآذن

وجبل المنصب في الوادي الكبير وهي مبنية على ثلاث تلال يمتد تحتها سهل واسع من اجمل السهول يسمى لافيكه • وغالب ابنيتها من القرميد الاحمر رصفت بعضها فوق بعض فاشبهت الرمانة المفلوقة • ولذا سميت غرناطة ومعناها الرمانة واشهر ابنيتها الحمراء وهي على تلة يجرى من تحتها نهر دارو وفيها برج عظيم على رأسه شرّف ولونه عقيقي ولذا قيل له (ثورفيرمبل) • وتجاه الحمراء (البايسين) اي البيضاء وهي حارة من حارات غرناطة وهي مشتملة على دور لطيفة للسكن • وبقرب الحمراء جنة العريف (جنراليف) وهي قصر للصيف من ابدع القصور مرتفع على قمة عالية وسميت الحمراء لانها مبنية بالقرميد الاحمر ومنظرها الخارجي ليس بعجيب فاذا دخل الزائر من بابها انبهر مما يراه داخلها من التزيين والنقش العربي (ارابسك) والتزويق والترصيع بالفسيفساء والتصفيح بانواع المرمر والقيشاني وكتبت عليه آيات قرآنية وعبارة (لا غالب الا الله) • وفي كل زينة من تزييناتها او تزويقة من تزاويقها دليل على سلامة الذوق والمهارة التامة في الصنعة وحسن الانتخاب • ومشتملات الحمراء دوائر كثيرة وساحات ومخادع واروقة وجنات تجري من تحتها الانهار وفيها جامع وحمامات واشهر مشتملاتها حوش السباع وهي ساحة سماوية مبلطة بالرخام الابيض يقرب طولها من ٣٠ متراً وعرضها ١٦ متراً وعلى جوانبها اروقة قائمة على عمدان من الرخام واقواس بديعة وفي وسط الساحة قصعة بيضاء قائمة على اثنتى عشرة سبع من المرمر الاسود يتفجر الماء من افواهها ويجري في قنوات مكشوفة الى البيوت والمخادع • ولكن الماء منقطع اليوم عنها • ومن مشتملاتها الظريفة قاعة السفراء وقاعة الاختين وغير ذلك • وقد مثلت الحمراء في كثير من المدن الاوروبية ومثلت في معرض باريس الاخير أحسن تمثيل

وتغزل شعراء العرب في غرناطة باشعار كثيره ونظم رئيس كتابها عبد الله بن زمرك موشحات لطيفة منها :

لازمة

نسيم غرناطه عليل لكنه يبرى العليل وروضها زهره بليل ورشفه ينقع الغليل

دور

عقيلة تاجها السبيكهْ تطلُّ بالمرقب المنيفهْ
كأنها فوقه مليكهْ كرسيها جنة العريفهْ
تطبع من عسجد سبيكهْ شموسها كلها تطيفهْ الخ

وقال ايضاً ووجه بها من فاس الى غرناطه

لازمه

ابلغ لغرناطه سلامي وصف لها عهدي السليم فلو رعى طيفها ذمامي مابتُّ في ليله السليم

دور

اعندكم انني بفاس اكابد الشوق والحنين
اذكر اهلي بها وناسي والليل في الطول كالسنين
الله حسبي فكم اقاسي من وحشة الصحب والبنين

لازمه

مطارحاً ساجع الحمام شوقاً الى الالف والحميم والدمع قد لج في انسجام منتثراً عقده النظيم

دور

يا ساكن جنة العريف أسكنتمُ جنة الخلود
كم ثمّ من منظرٍ شريفْ قد حف باليمن والسعود
ورب طود به منيفْ ادواحه الخضر كالبنود

والنهر قد سُلّ كالحسام لراحة الشرب مستديم والزهر قد راق بابتسام مقبلاً راحة النديم

ولد هذا الاديب في غرناطة واتصل بواسطة لسان الدين بن الخطيب الشهير الى اميرها واحرز منه على رئاسة الكتاب وترجمهُ لسان الدين في كتابه «الاحاطة» واثنى عليه وقيل بأن ولده كتب هامشاً على ترجمة عبدالله بن زمرك وطعن فيه وقال بأنه تقرب للامير بالافساد والوشايه على والده لسان الدين . وتوفي ابن زمرك مقتولاً سنة ٧٥٥ هـ قتلته زوجته مع ولدين له . ومما قاله ايضاً في غرناطة

غرناطة منزل الحبيب وقربها السؤال والوطرْ تبهر بالمنظر العجيب فلا عدا ربعها المطرْ
عروسة تاجها السبيك وزهرها الحلي والحللْ
لم ترض من عزها شريكْ بحسنها يضرب المثلْ
ايدها الله من مليكْ يملك المجد للدولْ
بدولة المرتجى المهيب الملك الطاهر الاغرْ تختال من بردها القشيبْ في حلّة النور والزهرْ
كرسيها جنة العريفِ مرآتها صفحة الغديرْ
وجوهر الحلي عن شنوفِ تحكمهُ صنعة القديرْ
والانس فيه على صنوفِ فمن هديلٍ ومن هديرْ

كم خرق الزهر من جيوب وكال القضب بالدرر فالغصن كالكاعب اللعوب والطير تشدو بلا وتر

وهي طويلة اقتصرنا منها على ما يناسب المقام . فجنة العريف التي اكثر الشعراء من ذكرها هي اشبه بقولنا اليوم قصر بلديز . ونظم في بارية ايضاً موشحات لطيفة ووصف قصرها العجيب فقال

عليك بارية السلام ولا عدا ربعك المطر مذ حل في قصرك الامام فقربك السؤل والوطر

عروسة انت يا عقيلة تجلى على مظهر الكمال
مُدّت لك الفُ مستقيلة تمسح اعطافك الشمال
والبحر مرآتك الصقيلة يشفُ من ذلك الجمال

الى آخره . وقال ايضاً في هذا القصر من موشح آخر

ياحبذا مبناك فخر القصور بروجه طالت بروج السما
مامثله في سالفات العصور ولا الذي شاد ابن ماء السما
كم فيه من مردى بهيج وقور في مرتقى الجوّ به قد سما الخ

ومما ورد على منوال منظومة فيكتور هوكو القصيدة الشهيرة التي مطلعها (لكل شيء اذا ماتم نقصان) حيث ورد فيها

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية واين شاطبة ام اين جيان
واين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان
واين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فيضان وملآن
قواعد كنّ اركان البلاد فما عسى البقاء اذا لم تبق اركان
تبكي الحنيفية البيضاء من اسف كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية قد اقفرت ولها بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ان كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه ابعد حمص تغر المرء اوطان

وحمص هي اشبيلية وهي على الضفة اليسرى للنهر اي الوادي الكبير المنصب في المحيط عند خليج قادس وارتفع وراء المدينة جبل ولذا قال فيها احد واصفيها

ذكرتك ياحمص ذكر هوى امات الحسود وتعنيته

كأنك والشمس عند الغروب ـ عروس من الحسن منحوته
غدا النهر عقدك والطود تا جك والشمس اعلاه ياقوته

وهذا اشبه بقول الشريف العقيلي المنتسب لعقيل بن ابي طالب في مدينة الفسطاط قاعدة الديار المصرية في اوائل الاسلام

تبدت عروساً والمقطم تاجهـا ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

ونظموا في اشبيلية كثيراً من الاشعار لانها كانت دار انسهم وسرورهم ومركز عزهم وحضارتهم وكان اهلها يزيدون على اربعمائة الف نفس واما اليوم فلا يبلغ سكانها المائة وخمسين الفاً . وفيها القصر الشهير المعروف عند الافرنج باسم (القازار) . وفيها منارة جيرالده وارتفاعها (٩٤) متراً وكان يرصد فيها الافلاك . ومما قيل في بلنسية المعروفة بمدينة فالانس وهي على شاطىء البحر المتوسط عند مصب (غواد الافيار) واليها ينسب كثير من من الادباء

بلنسية جنـة عاليه ظلال القطوف بها دانيه
عيون الرحيق مع السلسبيل وعين الحياة بها جاريه

قاله ابو العباس احمد بن الزقان ومدحها باشعار كثيرة . ومما قيل في قرطبة ايضاً :

بأربع فاقت الاقطار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم افضل شيء وهو رابعها

وقرطبة كما تقدم على نهر الوادي الكبير والزهراء منارة من حاراتها

٣ — اوراق الخريف

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقالة ادبية تاريخية سياسية نظر فيها نظرة عامة الى الاحوال الجارية في سنة ١٨٣١ والى المسائل الخارجية وشبه القرن السادس عشر للميلاد بصراط مرّت عليه الامم الاوربية من الجامعة الدينية والسياسية الى حرية الضمير وحرية المدنية اي استقلالها بادارة بلديتها . ومن الفلسفة المنطقية الرهبانية الى الفلسفة الحسية التحليلية المؤسسة على البحث والتفتيش . ومن الدين الكاثوليكي الى الدين البروتستانتي ومن افانين الصناعة القوطية الى افانين الصناعة المدرسية وهي المستفادة من درس آثار الرومان واليونان . قال ولم يكن حينئذٍ في اوربا الا حروب دينية وحروب اهلية وحروب على الاعتقاد بالسر المقدس وعدم الاعتقاد به ولم يكن يسمع فيها الا صليل السيوف ولغط العلماء المتعصبين . فظهر لوتر مؤسس الدين البروتستانتي وظهر ميكل آنج مصوّر (اليوم

الآخر) وهو شيخ المصورين وامامهم . وحدث انقلاب وتبدل في اوربا ولكن القلب الانساني مثله كمثل الارض . يتيسر لك حرثها وزرعها وبناء ما تريد بناءه عليها ومع ذلك لا تنفك عن انبات العشب المغروس في طبيعتها وبزوره في داخل جوفها . ولا يتمكن المحراث من الوصول الى اعماقها ولا قلب سافلها لعاليها . وكذا القلب الانساني لم يزل مغروساً فيه شيء من الافكار العتيقة ولا تزول هذه الافكار تماماً الا بهدم القلب الانساني . اذ لا يكفي ان يقلب عاليه سافله فقط . فالذي يهدم القلب الانساني هو الشعر

وترنم الشاعر في هذا الديوان بمحبة الوالدة وبذكر المعاهد البيتية واحوال الطفولية وعبر عما يجده في نفسه ويحس به في قلبه ولذا كان تاثيره على نفوس القراء اشد من تاثير ديوان الشرقيات . غير ان الشرقيات اكثر سناء وضياء من اوراق الخريف

اما المنظومة الاولى فمطلعها «كان لهذا العصر سنتان» يعني حينما ولد سنة ١٨٠٢ فشخص كيفية ولادته وحضانة امه وحنوها ورافتها عليه . وذكر في القصيدة الثانية بيت ابيه وكيفية الذهاب اليه وما في طريقه من المدن وما حوله من الرسوم والاطلال وما ابقاه في ذهنه من التصور والخيال . وقال في منظومة اخرى «حينما يولد الطفل تهتف العائلة باصوات الفرح وتقرّ عيونهم جميعاً برؤية لحظه اللطيف اللامع وتتهلل وجوههم بالبشر مهما كانت حزينة او عبوسة ....». واطنب في وصف ما يتعلق بالمولود ومحبة امه له وخفقان قلبها عليه وكيفية نومه وقعوده وبكائه واكله وصور جميع ذلك باسلوب بديع يخال منه للقارىء كأنه في دار الولادة يسمع ويرى ما يحدث فيها من الاحتفال بالمولود . وعلى منوالها منظومة اخرى مطلعها «ما اجمل الطفل وهو يبتسم» . وكان تزوج وولدت زوجته فاختبر لذة العائلة وعرف محبة الاولاد ولذا خالف في هذا الموضوع المعري القائل

على الولد يجني والد ولو انهم ولاة على امصارهم خطباء
وزادك بعداً عن بنيك وزادهم عليك حقوداً انهم نجباء
يرون اباً القاهم في مؤرّب من العقد ضلت حله الارباء

وله ايضاً : ابوك جنى شرًّا وانما هوالضبُّ اذ يُسْدِي العُقوق الى الحِسْل

وهو ولد الضب ولذا كنى ابا حِسْل ويقال في المثل هو أعق من الضب

وهو القائل في اللزوميات ايضاً من قصيدة غراء مطلعها

ترنم في نهارك مستعيناً بذكر الله في المترنمات

ومنها ولا ترجع بايماء سلاماً على بيضٍ اشَرنَ مسلمات الى ان قال

خمور الريق لسن بكل حال على طلاهن محرمات
ولكن الأوانس باعثات ركابك في مهالك مقتمات
صحبنك فاستفدت بهن ولدًا اصابك من أذاتك بالسّمات
ومن رُزق البنين فغير ناءٍ بذلك عن نوائبَ مُسْقِمات
فمن ثُكْلٍ يهاب ومن عُقوق وارزاءٍ يجئنَ مُصمّمات
وان تُعطَ الإناث فأيّ بُؤْس تبيّن في وجوه مُقسّمات
يُردن بُعولةً ويردن حَلْيًا ويَلقينَ الخطوبَ مُلوّمات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارةٍ متغشّمات (١)
ودفنٌ والحوادث فاجعاتٌ لاحداهن احدى المكرمات
وقد يَفقِدنَ ازواجًا كرامًا فيالنسوة المتأيّمات
يلدن اعاديًا ويكنّ عارًا اذا امسين في المتهضّمات
يَرُعْنَك ان خَدمن بغير فنٍّ اذا رُحن العشيّ مُخدّمات (٢)
ومنها وما الجارات الا جاريات بعيبك ان وُجدن معيمات
فلا تسأل أهند امْ لَميسٌ ثوت في النسوة المتخيمات
ولا ترمق بعينك رايحات الى حمامهن مكممات
الى ان قال وساوِ لديك اتراب النصارى وعينًا من يَهودَ ومسلمات
ومن جاورت من حُنُفٍ وسرب صوابي(٣) فَلْيَبِنَّ مكرمات
فان الناس كلهم سواء وان ذكت الحروب مضرمات
ومنها وواحدة كفتك فلا تجاوز الى اخرى تجيء بمولمات الخ

وفي هذا المعنى ابيات من قصيدة لعلقمة بن عبدة من شعراء الجاهلية مدح بها الحرث الغساني واولها :

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
تكلفني ليلى وقد شط اهلها وعادت عوادٍ بيننا وخطوب
ومنها فان تسألوني بالنساء فانني بصير بأدواء النساء طبيب

(١) تغشم اذا دخل في الامر بشدة (٢) بغير فن اي بضروب كثيرة ومخدمات ذوات خدم وهي الخلاخل (٣) الحنيف المسلم على ملة ابراهيم عليه السلام والصابئون جنس من اهل الكتاب

اذا شاب رأس المرء او قل ماله فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث وجدنه وشرخ الشباب عندهن عجيب

فكأنّ فيكتور هوكو عارض المعري وصور في هذا الديوان سرور العائلة بالاولاد . وكان لما نظمه في زهو الشباب . فالشاعران في هذا المبحث على طرفي نقيض . ولكنهما يتفقان (في تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد ووضع المنن في كل جيد) وفي الحيرة وهي مذهب الذين قالوا رب زدني فيك تحيراً كما قال ابن الفارض

زدني بفرط الحب فيك تحيراً وارحم حشا بلظى هواك تسعرا

فاظهر فيكتور هوكو حيرته في منظومة عنوانها (ما يسمع على الجبل) . قال فيها : بانه صعد على جبل مشرف على المحيط الغربي ووقف صامتاً ساكناً يرى السماء فوقه والماء تحته ويسمع تلاطم الامواج وتضارب الرياح وامتزاج اصوات البر بأصوات البحر وصعودها الى الملأ الاعلى . فالصوت الذي يصعد من البحر فيه جلالة وسرور وهو من تلاطم الامواج والهدير . والصوت الذي يأتي من البر فيه كآبة وحزن وهو من تضارب الرياح وتأفف الانسان من مصائب الحياة . فالبحر يرتل آيات الفرح والسلام كترتيل المزامير في صهيون ويحمد الخالق على ما ابدعه من جمال المخلوقات فيصعد كلامه الطيب الى الله . وكلما فرغت موجة من تسبيحها قامت وراءها موجة أخرى تسبح الله . وأما البر فينادي باصوات الويل والحرب ويصرخ ويشتم ويلطم . فهذا الصراخ والعويل انما هو بكاء الارض وصراخ الانسان . وهذان الصوتان احدهما يقول (الطبيعة) والثاني يقول (الانسانية) . قال الشاعر وتأملت طويلاً في هذا المنظر الباهر وفكرت في لجّ البحر الذي تعلوه الامواج فانفتح في قلبي لجة عميقة لا قعر لها وقلت في نفسي لِمَ نحن هنا ؟ ما هو الغرض من كل هذا ؟ ما تصنع النفس ؟ ايهما احسن البقاء أم الفناء ؟ والله الذي يقرأ وحده في لوحه المحفوظ لايّ سبب يمزج على الدوام غناء الطبيعة ببكاء الجنس البشري :

قال المعري :

أرى الخلق في أمرين ماضٍ ومقبلٍ وظرفين ظرفيْ مدة ومكان
اذا ما سئلنا عن مراد الهنا كفى عن بيان في الاجابة كانِ

ونظم فيكتور هوكو في هذا المعنى قصيدة أخرى عنوانها (الشموس الغاربات) صور فيها غروب الشمس وظهور الشفق وتكاثف الغيام على الافق . واستدل بنظره في

المخلوقات على وجود الخالق . « انّ في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار . » فأُولو الالباب من الشعراء لاسيما الذين نهجوا منهم نهج الطريقة الرومانية لا يفترون عن التفكير في هذا الامر . ومما في منظومة الشموس الغاربات من لطائف الابيات قوله : « هذه السحب المتلونة بالوان الرصاص والذهب والنحاس والحديد تستكنّ فيها الزوبعة والاعصار والصاعقة والجحيم وتدمدم دمدمة خفيه . فهو الله الذي يعلقها جميعاً في السموات العميقة كما يعلق الفارس على اوتاد البيت اسلحته المتصلصله . » (١)

ومما ورد لفيكتور هوكو في هذا الديوان من القصائد البديعة ، التي سماها « الدعاء للجميع » قال :

يابنتي قومي للصلاة . — انظري قد عسعس الليل ، ونزل الضباب على الافق ، وطلع النجم من وراء السحاب كانه دينار . انصتي لم يبق الا مركبة تكرّ في الظلام على بعد . والكل دخل ليستريح . والشجرة التي على الطريق نفضت غبار النهار بريح المساء (وهي الدبور) .

زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية . ورقق المغرب حاشيته الحمراء . وفضض الليل في الدجا وجه الماء . وامتزجت اتلام المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك . واختفى الجميع عن العيان . والتبست الطريق على ابن السبيل .

النهار للاذى والتعب والبغض . فلنشرع في الصلاة حيث دخل الليل . ما اصفى الليل وما أوقره ! الراعي يعود والماشية تجأر ، والريح تعزف في نوافذ البرج ، والمياه تركد في المستنقعات . والجميع يتألم ويشكو . لان الطبيعة من شدة تعبها امست في احتياج للنوم والصلاة والحب .

---

(١) سورة النبأ : ألم نجعل الارض مهاداً . والجبال اوتاداً . وخلقناكم ازواجاً . وجعلنا نومكم سُباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهّاجاً . وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حبّاً ونباتاً . وجنات الفافاً

والسبات الراحة . والمعصرات السحائب تقتصر بالمطر . والاعصار ريح تثير سحاباً ذات رعد وبرق (٣) والنعيق صوت الراعي بغنمه

هذه الساعة هي التي يتكلم فيها الاولاد مع الملائكة . وأما نحن فنهرع فيها للاهين الغريبة . فجميع الاولاد الصغار يدعون في آن واحد بدعاء واحد . وهم راكعون على الارض واعينهم شاخصة الى السماء وأيديهم مضمومة وارجلهم حافية . ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى .

ثم ينامون . — وحينئذ تتأثر احلامهم الذهبية في حندس الليل بعد ان تتولد من هوشات آخر النهار . فاذا رأت عن بعد انفاسهم متصاعدةً وشفاههم محمرّةً طارت الى ناموسياتهم كما يطير النحل الى الازهار ورفرفت حولها .

فيا عجباً لنوم السرير ! ويا عجباً لدعاء الصغار ! فهو صوت حنوّ ورأفة لاعدوان فيه . وما احلى هذا الدين الذي يُقرُّ العين و يضحك السن ! هذا مطلع النشيد في ليلة السعود . فَينيمُ الولد عقلهُ الصغير في الدعاء كما يضع الطير رأسه تحت جناحه .

٢

يا بنتي قومي للصلاة . — وادعي اولاً وخاصة للتي هزت الليالي الطوال في سريرك . للتي التقطتك من عالم الذر وانت نفس لطيفة ووضعتك في الدنيا وصارت لك اماً شفوقة وقسمت لاجلك نصيبها من هذه الحياة المرة الى قسمين فشربت الحنظل واسقتك العسل

ثم ادعي لي . فاني احوج منها لدعائك . لانها هي مثلك صالحة ، بسيطة ، صادقة ، قلبها صافٍ ، ووجهها راضٍ . شفقتْ علي كثيرين ولم تحسد احداً . عاقلة ، حليمة ، صابرة على غصص الحياة ، متحملة للشر بدون ان تعرف فاعله

طالما قطفت الزهور و يدها الطاهرة لم تمسّ قشر الشجرة المنهي عنها[1] . ولم تقع بالفخ مع ضحكة سنها . وتنسى دائماً كل ماسلف ومضى . ولا تعرف الافكار الخبيثة التي تمرّ في الذهن كما يمر الظل على الماء

تجهل — واجهلي مثلها دائماً — مافي هذا العالم من الشقاء الملوّث للنفس ، والحظوظ الكاذبة ، والاباطيل الفانية ، وكلّ ما عاقبته الندامة وتبكيت الضمير ، والشهوات التي ترغي على القلب كالرغوة ، وخواطر الخجل والمرارة الباعثة على احمرار الوجه

(١) قيل ان الاديب الماهر في الانتقاد الادبي سنت ريف كان يغازل زوجة فيكتور هوكو ولذا حصل بينهما تقاطع وعداوة

انا اخبر بالحياة ويمكني ان اقول الك متى كبرت واقتضى تعليمك بان الجري وراء السلطنة والسعادة والتفنن هو جنون ودناءة · و بان كاس[1] الانتخابات تدور علينا وتسقينا الخزي بدلاً عن الفخار · و بان الانسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار

كلما عاشت النفس تعطشت · والامور وان شفّت بدايتها عن نهايتها وظهرت اسبابها في عاقبتها فالانسان مع ذلك يشيب على الرذيلة وعلى الضلال المنفور منه · من كثرة المشي يتيه الانسان ويداخل عقله الشك · والكل يترك شيئاً على شوك الطريق التي سلكها · فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته

قومي اذاً وادعي لي · وقولي في مقام كل دعاء : « يا الله يا الله ياربنا انت ابونا فارحمنا انك انت الرحيم · فارحمنا انك انت العظيم · » ودَعي قولكِ يذهب الى حيث ترسله نفسك · ولا تقلقي فلكل شيء طريق · فلا تقلقي على الطريق التي يذهب فيها لا شيء في هذه الدنيا الاّ وله مجرى · فالنهر يجري ملتوياً بين السهول حتى يصبّ في البحر · والنحلة تعرف الزهرة التي فيها العسل · وكل طائر يطير ويقع دائماً على غرضه · فالنسر يطير و يرتفع نحو الشمس · والعقاب يهبط على المقبرة · والخطاف (السنونو) يطير في الربيع · والدعاء يصعد الى السماء

فاذا ارتفع صوتك الى الله بالدعاء لي اكون كالعبد الذي جلس في الوادي بعد ان حطّ حمله على حافة الطريق واشعر بخفة نفسي · لان دعاءك يأخذ بيده وهو صاعد جميع ما يثقل على عاتقي من الآلام والاوزار والخطايا

قومي ادعي لابيك · — لاصير اهلاً لرؤية طيف ملاكٍ يمر في المنام كطير الحمام · ولتشتعل نفسي مع اشتعال البخور · امحي خطاياي بِنَفَسِكِ الطاهر ليصير قلبي معصوماً نقيًّا كأنه صحن الهيل الذي يغسل في كل مساء

٣

ادعي ايضاً لجميع من يمر على هذه الارض من الاحياء · ولجميع الذين اندثرت مآثرهم بهبوب الرياح وتلاطم الامواج عليها · وللاحمق الذي يفرح بلمعان الحرير وبسرعة عدو الخيل · ولكل من يتألم و يشتغل سواء كان غادياً او بادياً · سواء عمل خيراً او شرًّا ادعي للمنهمك في اللذات والعاكف على القبلات الى الصباح · ولمن يتخذ وقته

(١) وهي كاس تجمع فيها الاصوات لانتخاب رئيس المجلس او غيره

فاذا ارتفع صوتك الى الله بالدعاء لي اكون كالعبد الذي جلس في الوادي بعد ان حط حمله على حافة الطريق واشعر بخفة في نفسي • لان دعاءك يأخذ بيده وهو صاعد جميع ما يثقل على عاتقي من الآلام والاوزار والخطايا •

قومي ادعي لابيك • — لاصير اهلاً لرؤية طيف ملك يمرّ في المنام كطير الحمام • ولتشتعل نفسي مع اشتعال البخور • امحي خطاياي بنفسك الطاهر ليصير قلبي معصوماً نقياً كانه صحن الهيكل الذي يغسل في كل مساء

٣

ادعي أيضاً لجميع من يمر على هذه الارض من الاحياء • ولجميع الذين اندثرت مآثرهم بهبوب الرياح وتلاطم الامواج عليها • وللاحمق الذي يفرح بلمعان الحرير وبسرعة عدو الخيل • ولكل من يتألم ويشتغل سواءً كان غادياً او بادياً • سواءً عمل خيراً او شرًّا

ادعي للمنهمك في اللذات والعاكف على القبلات الى الصباح • ولمن يتخذ وقت الصلاة ليلهو بالرقص أو الجلوس على المائدة • ويشتغل بالفحشاء في الساعة التي تتلو النفس الزكية فيها دعاء المساء واذا فرغت من دعائها رجعت خائفة من ان الله لم يسمع رجاءها

يا ولدي ادعي للعذارى المستورات • وللمحبوس في القلعة • وللعواهر اللواتي يبعن اسم الحب الغالي • وللعاقل الذي يستغرق في مطالعاته ويتفكر في الخلق • وللكافر الملعون الذي يطعن في الشريعة المقدسة • — لان الدعاء لا نهاية له • لانك تؤمنين عن الذي يجحد والطفولية تقوم مقام الايمان

ادعي أيضاً للذين هم راقدون تحت حجر القبر • يا لها من حفرة سوداء تفتح امامنا في كل آن • جميع هذه النفوس الهالكة مفتقرة لمن يزيل عنها صداء الجسم (١) هل سكوتها دليل على انها لا تتألم ؟ يا أولادي لننظر تحت الارض لان الشفقة على الاموات

٤

اركعي اركعي على الارض حيث وضع ابوك اباه • حيث وضعت أمك أمها حيث يرقد كل من عاش عليها رقدة عميقة حفرة يمتزج فيها الغبار بالغبار • ويجد الانسان تحت أبيه آباءً • كالليج تحت الليج في بحر لا قعر له

(١) معري : تجاور هذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذى بذاك وتصدأ

يا ولدي حينما تنامين تتبسمين • فيأتي الطيف وهو فرحٌ في الظلام الذي غطست فيه • فيجفل من نفختك ثم يعود اليك ايضاً • وفي النهاية تفتحين عينيك الالهيتين اللتين أحبهما • في الوقت الذي يفتح فيه الفجر على الافق جفنه وله أهداب ذهبية فان الفجر عين الهية أيضاً

ولكن الاموات لو تعلمين أيّ نوم ينامون ! فراشهم باردة وثقيلة على عظامهم ولذا شنعتهم • والملائكة لا يسبحون وهم مجتمعون حولهم وطيف الخيال يثقل عليهم بجميع ما جنته أيديهم • ليلهم ليس له فجر • والندامة تنقلب دوداً في القبر وتفتت قلوبهم

يمكنكِ بكلمة يمكنكِ بقول ان تجعلي ندامتهم تتخذ لها جناحاً وتطير • وان تبقي بحرارةٍ لطيفةٍ تُلذذُ عظامهم • وان تجعلي الشعاع يصيب أيضاً اجفانهم الغامضة وان توصلي لهم خبراً من النور والحياة وشيئاً من الرياح والاحراج والمياه

قولي لي حينما تذهبين وأنت طفلة متفكرة تدورين على شاطيء البحر المتلاطم او تحت الشجر الذي يملا القلب مهابة بظله وبتضارب الرياح عليه ، ألا تسمعين صوتاً يقول لك : يا بنيّ حينما تدعين ألا تدعين لي ؟

هذه شكوى الاموات ! فالاموات الذين يدعى لهم ينبت على قبرهم نبات اشد اخضراراً واكثر أزهاراً • ولكنهم منسيون واحسرتاه ! حتى الشيطان لا يضحك لهم ولا ضحكة استهزاء • ليلهم بارد مظلم • وبعض الشجر الهائل الذي يظلل قبورهم يغرس دائماً عروقه في قلوبهم بلا شفقة عليهم

ادعي ! حتى ان الاب والعم والاجداد الذين لا يطلبون منا الا الدعاء فقط ، يهتزون في قبورهم عند سماع ذكرهم • ويعلمون ان على وجه الارض من يتذكرهم بعد ، ويشعرون بحصول دمعة في عينهم الفارغة كما ان ثلم المحراث يشعر بتفتح الزهرة

٥

يا حمامتي لا ينبغي لي انا ان ادعي لجميع الهالكين • ولا الاحياء المارقين من الدين • ولا لجميع الذين ضمهم القبر • والقبر اصل المعابد

لا ينبغي لي انا الذي نفسه فانية ، مملوءة بالخطايا ، وفارغة من الايمان ، ان ادعي للجنس البشري • لان صوتي يكاد لا يكفي ليستغفر الله عن ذنوبي

كلاّ بل لو امكن أحد ان يدعي اليوم لهذه الارض الفاسدة لكان انت • انت الذي صوتك يسبح • ودعاؤك الطاهر ياولدي يمكنه ان يتكلف بالآخرين •

اسئلي هذا الاب العظيم الذي يبسم في أفقك لماذا الشجرة الكبيرة تخنق الشجرة الصغيرة ؟ ومن الذي يميل بالعقل البشري عن الحق الى الباطل

اسئليه هل الحكمة لا تختص الا بالازلية ؟ لماذا نفخته تحطنا ؟ لماذا تحشر الانسانية في القبر بلا انقطاع ؟

الاولاد يسهرون في المكان المقدس على الذين افناهم الاثم • فهم ازهار يعطرونهم وهم بخور يفوح عليهم • وهم اصوات ترتفع الى الله

فلنترك هذه الاصوات العالية تفعل • ولنترك الاطفال جاثين على الركب • ايها المذنبون كلنا ولنا ذنوب • كلنا على شفا جرف هار • فينبغي للطفولية ان تدعو لنا

٦

الخ •• الخ ••

وقصيدة الدعاء للجميع طويلة ومشتملة على قواعد الانسانية والفلسفة الاجتماعية التي شرعها وأوضحها في كتاب البؤساء • لان النثر أوسع مجالاً من الشعر الذي يضيق عنه الكلام ولا يتيسر فيه الا الرمز للمسائل والاشارة اليها واللبيب تكفيه الاشارة • وانما أوردنا منها ما ذكر لتعلم الاساليب الشعرية التي جرى عليها المؤلف في النظم على نهج الطريقة الرومانية ولتظهر أفكاره في الموجودات • وكان نظمه لهذه القصيدة وهو في سن الشيخوخة أي في سنة ١٨٨٠ وهي معتبرة من ابلغ كلامه

وعساه اتبع في هذا الدعاء الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبي عليه السلام

قيل — يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة ؟

قال — أمك ثم أمك ثم أباك ثم ادناك ثم أدناك •

ومما ورد في القرآن قوله تعالى « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا »

وقال المعري في اللزوميات :

واعط أباك النصف حياً وميتاً ... وفضل عليه من كرامتها الاماً

أقلك خفاً اذا أقلتك مثقلاً ... وأرضعت الحولين واحتملت تماً

والقتك عن جهد والقاك لذةً ... وضمت وشمت مثل ماضم اوشماً

والنصف هو النصفة والانصاف • واقل بمعنى حمل • واحتملت تما أي أتمت أيام

حملها وولدت لتمام ولو تتبعنا كلام المعري أو ما ورد على شاكلته من الشعر العربي لوجدنا فيه اكثر المعاني الواردة في قصيدة الدعاء للجميع

٤ — اغاني الشفق

ويشتمل هذا الديوان على نحو خمسين قصيدة بديعة ابلغها المنظومة التي عنوانها (الى العمود) وهو المركون في ميدان فاندوم بباريس • وكان نُصب على عهد الامبراطورية الاولى تذكاراً لانتصارات نابوليون الاول على النامساويين والروسيين واغتنامه منهم الغنائم الكثيرة وفي جملتها ١٢٠٠ مدفع فبني العمود بالاحجار وصفح بنحاس المدافع المغتنمة بعد ان نقش عليه صور المحاربات على الاسلوب المعروف عند الرومان وبقية الامم الفاتحة القديمة التي نصبت المسلات والاعمدة والاهرام وصوّرت الصور على جدران المعابد والقبور • وعدّد الشاعر في هذه المنظومة مظفريات نابوليون ومآثره ومفاخره وقال بان يد قدرته شيدت هذا العمود بالمجد والنحاس • والقصيدة من أبلغ أشعار الحماسة وقد صدرت من أفصح شاعر في حق أعظم فاتح

ومن قصائد هذا الديوان المنظومة التي عنوانها (نابوليون الثاني) ومطلعها : الف وثمانمائة واحدى عشرة • وهي السنة التي ولد فيها الممدوح • وهذا المطلع من اساليب الطريقة الرومانية وليس فيها تعمل ولا تصنع كما في مطلع القصائد المنظومة على نهج الطريقة المدرسية • ونابوليون الثاني هو ابن نابوليون الاول وحفيد أمبراطور النامسا ويسمى دوق ريشتاد وكانت نشأته في فينا عند أمه • والف فيه شاعر العصر أدمون روستان رواية بديعة سماها النسر (ليكلون) تصغير نسر وتمثل في يومنا على المراسح

وفي هذا الديوان أيضاً منظومتان عنوانهما (قناري) وهو بطل اليونان المتقدم ذكره في ديوان الشرقيات • وكانت ولادته سنة ١٧٩٢ في جزيرة إبصاره المجاورة لجزيرة ساقز ووفاته سنة ١٨٧٧ • وكان رئيساً على مركب صغير وبعد استقلال اليونان صار رئيساً للاسطول وناظراً للبحرية ثم رئيساً للوزارة •

وفيه أيضاً قطعة عنوانها (الرجاء بالله) ومنها يعلم حسن اعتقاد الرجل وان كان من أهل الحيرة • وهي : ضعْ يا ولدُ أملكَ في الغد ، ثم في الغد ايضاً ، ثم في الغد دائماً • ولتعتقدْ في المستقبل • ضع أملك وكلما طلع الفجر لنكن هناك حاضرين لنستغفر كما ان الله حاضر ليغفر • خطايانا يا حبيبي وملكي هي المسببة لآلامنا • فلعلنا اذا اطلنا القعود على الركب يغفر الله لنا بعد فراغه من الغفران لجميع المعصومين ولجميع التائبين

٥ — الاصوات الداخلية

نقل المؤلف في مقدمة هذا الديوان عن شكسبير انه قال في بعض مؤلفاته بان كل انسان في داخله موسيقى فتبًا لمن لا يسمعها . واورد في هذا الديوان اثنتين وثلاثين قصيدة غراء ومن ابلغها قصيدة البقرة . صور فيها قرية بما حولها من الدجاج والكلاب . ينبح هؤلاء والناس نيام وتصرخ اولئك عند طلوع الفجر . فالديوك حراس النهار والكلاب حراس الليل . وفي تلك القرية بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقفت بكل هيبة ووقار لا تعبأ بالذين حولها . وجاء صبية بشعور مغبرة واطمار بالية واسنان حادة وصحة تامة وهم في صراخ وجلبة يزاحم بعضهم بعضًا وينادي كل فريق منهم رفاقه . واغتنموا فرصة غياب اللبان وانقضوا على البقرة يعصرون ثديها باصابعهم ويلتهمون حلماتها الكثيرة بافواههم ويمتصون حليبها وهم متكأكئون حول احشائها وهي غير مكترثة بما يفعلون وشاخصة ببصرها تنظر الى بعض النقاط التي حولها

فمثل هذه البقرة كمثل الدنيا ام المخلوقات وملجأهم الوحيد يلتقطون العشب واللبن من تحت احشائها الابدية . قال المؤلف فنحن معشر العلماء والشعراء تعلقنا بثديك المتين ايتها الطبيعة وارتوينا مما ادرّه علينا فكان لبنك دمًا وروحًا لنا . واستفدنا من نورك وحرارتك واوراق شجرك ومن جميع ما عليك من الجبال الراسية والانهار الجارية والمروج الخضراء والسماء الزرقاء وانت تفكرين بربك ولا تنزعجين منا

فبقرة فيكتور هوكو اشبه بام دفر المعري حيث قال :

دنياكِ تكنى بام دفـر لم يكنها الناس ام طيب

والدفر هو النتن والتعفن ولا تخفى مناسبته في تكوين الحيوان والنبات . ولكن بقرة فيكتور هوكو تدرّ على ابنائها بلبن سائغ للشاربين . والمعري

يحلف ما جادت الليالي الا بسم لنـا قطيب

والقطيب الممزوج

٦ — الاشعة والظلال

افتتح هذا الديوان بمقالة ادبية نثرية قال فيها :

كتب شاعر عن جنة عدن الضائعة وكتب شاعر آخر عن النار . فالدنيا بين الجنة والنار . والحياة بين البداية والنهاية . والانسان بين اول انسان وآخر انسان . فالانسان موجود باعتبارين احدهما بالنظر للجمعية والثاني بالنظر للطبيعة . ووضع الله الشهوة في

الانسان . ووضعت الجمعية فيه العمل . ووضعت الطبيعة فيه الخيال فمن الشهوة الممزوجة بالعمل اي من الحياة في الحاضر ومن التاريخ في الماضي تولد « الدرام »[1] ومن الشهوة الممزوجة بالخيال تولد الشعر بمعناه الاصلي . فاذا نزل توصيف الماضي الى التفصيلات العلمية ، واذا نزل توصيف الحياة الى التشريحات الدقيقة صار الدرام رومانا . فالرومان ماهو الا درام مفصل تارة بالفكر وتارة بالقلب تفصيلاً لا يليق بالتمثيل على المراسح . وعدا هذا فالشعر فيه درام . والدرام فيه شعر . فالدرام والشعر ينفذ كل منهما في الآخر كما تنفذ الحواس في الانسان او كما ينفذ النور في الاجسام . والعمل فيه احياناً خيال . مثال ذلك ماقاله السيد في الرواية التي الفها قورنيل : « هـذا النور المظلم الذي يهبط من النجوم »

لا احد في هذا الكون يتخلص من السماء الزرقاء والشجر الاخضر والليل المظلم والرياح العاصفة والطيور المغردة . وليس من مخلوق يقدر على التجرد من الخليقة — على حد قول المعري : أأخرج من تحت هذي السماء فكيف الاباق واين المفر . — ومن جهة اخرى الخيال فيه احياناً عمل ..... لان الواحد يتمّم الآخر والشيء يكمل بعضه البعض . فالجمعية تقوم في الطبيعة والطبيعة تظرف الجمعية

فالشاعر تنظر احدى عينيه للانسانية والاخرى للطبيعية . والعين الاولى تسمى الملاحظة والاخرى تسمى التصور . فمن هاتين العينين الشاخصتين في موضوعهما يتولد في مخ الشاعر الهام يقال له القريحة ..... الخ

ثم افتتح المؤلف هذا الديوان بقصيدة عنوانها (وظيفة الشاعر) . وكان تكلم على هذه الوظيفة في مقدمة الديوان الاول وقال ينبغي للشاعر ان يكون للامة نوراً يسعى بين يديها . ويريها طريق الصواب . ويقودها الى المبادىء الحسنة . وهي الانتظام والشرف ومكارم الاخلاق . ولتكون سلطة الشاعر هيّنة على الامة يلزم ان يهتز بين اصابعه جميع الياف القلب الانساني كما تهتز اوتار العود . ويلزم ان لا يكون كلام الشاعر صدى لكلام احد سوى كلام الله تعالى . وينبغي للشاعر ان يذكّر الامة بان لها ديناً ولها وطناً وهذا ما اغفل ذكره المتقدمون وان ينشر دائماً باشعاره ما يكون لبلاده من الاقبال والادبار وما في دينه من الزهد والاستغراق في الحب حتى ينال المتقدمون عليه والمعاصرون له شيئاً

(١) مؤلف الجنة الضائعة هو الشاعر الانكليزي ميلتون . ومؤلف النار اي الكوميديا المقدسة هو الطلياني دانتي . انظر مقدمة روى بلاش في تعريف الدارم

من قريحته ومن روحه وحتى لا يقول عنه من يأتي بعده في المستقبل بأنه كان ينشد اشعاره بين قوم جاهلين

وبيّن فيكتور هوكو في القصيدة التي عنوانها وظيفة الشاعر افكاره وشرحها احسن شرح وشبه الطبيعة بعود كبير وشبه الشاعر بريشة الهية يضرب بها على اوتار هذا العود . فالشاعر يُلهَمُ الشعر وهو يسيح بين غياض الاشجار وعلى سواحل البحار ويسمع هدير الماء وتلاعب النسيم بالاوراق . وقال في آخر القصيدة الرابعة : انشر ايها الشاعر نشيدك الديني بين العائلات وبين الصبيان والبنات وبين الشيوخ . وأَرِدْ باصبعك الساحل للذين سارت بهم السفن في لجّ البحر والارياح متغيرة[1] . وأَرِدْ للعذارى العصمة وهي كوكب السعد والشرف . وارد للجمهور المحراب الذي غطاه الكفر . وارد للشبان المستقبل وللشيوخ الخلود . وصب دليلك في عقول الرجال والنساء . وارد لكل منهم الصحيح من الجهة المقنعة حتى يجد عندك كلُّ مفكر ما يفتش عليه . أُغرِسْ محبة الله في القلوب والقِ في كل نفس كلمة الهية من جنس ما تشعر به ..... الخ

وهذا ما اشار اليه المعري في مقدمة لزومياته حيث قال : انشأت ابنية اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزهتها عن الكذب فمنها ماهو تمجيد لله وبعضها تذكير للناسين وتنبيه للرقدة الغافلين وتحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالاول واستجيبت فيها دعوة جرول اذ قال لامه

جزاك الله شرًّا من عجوز ولقاك العقوق من البنينا

فهي لا تسمح لهم بالحقوق وهم يباكرونها بالعقوق .. الخ

فهذه صفة الشاعر الذي ينبغي الاقتداء به والنسج على منواله . لا الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل وادٍ يهيمون ويقولون مالا يفعلون حتى صار لهم الكذب خلقاً والتملق للامراء سجية استجداءً لمعروفهم وطلباً لاحسانهم

وأَرِقُّ مافي هذا الديوان المنظومة التي عنوانها حزن اوليمبيو كنى بهذا الاسم عن نفسه وقايس فيها بين جلال الطبيعة وجمالها وبين قلة حظ الانسان وقصر ايام سعادته وليالي انسه وانقضاء شهواته وفناء لذاته . اذ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام . قال فيكتور هوكو في آخر هذه القصيدة : يُقرضنا الله المروج النضرة والعيون الجارية والاشجار الملتفة والصخور الوعرة والسموات الزرق والبحيرات والغدران والسهول لنضع

(١) يموج بحرك والاهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن ارساء (معري)

فيها قلوبنا واماينا واشواقنا . وهذا القرضُ لاجل مسمى . ثم يسترد جميع ذلك منا و يطفئ سراجنا و يغمس في الليل المغارةَ التي كنا مستنيرين ونحن فيها . و يقول للوادي الذي انطبعت عليه روحُنا ان يمحي اثرنا و ينسى ذكرنا . فلا حيلةَ . انسينا ايتها الدار والبستان والظل والخضرة . وابلي باعتابنا . واخفي ياشوك اثر اقدامنا وغردي يا طيور واجري يا انهار وانمي يا اوراق . فان الذين نسيتوهم لا ينسوكم ابداً . . . . . الخ . وهي طويلة محزنة . وفي هذا المعنى او ما يقاربه قصيدة المعري التي يقول فيها

للمليك المذكرات عبيد وكذاك المؤنثات اماء
فالهلال المنيف والبدر والفر قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار والنثر ة[1] والارض والضحى والسماء
هـذه كلها لربك ماعا بك في قول ذلك الحكماء
خلني يا اخي استغفر الله فلم يبق في الا الذماء
ويقال الكرام قولاً وما في العصر الا الشخوص والاسماء
واحاديث خبرتها غواة وافترتها لمكسب القدماء

وهي طويلة مدروجة في اللزوميات وكلها حكم . ونفَس المعري ونفَس فيكتور هوكو يتقاربان ولكن الاول اعمى والثاني بصير يرى بهجة الطبيعة وزينتها فيظهر وصفها في شعره . ويزيد فيكتور هوكو على المعري بانه من اهل عصر جديد بزغت في افقه شمس الحرية والمدنية واتسع فيه نطاق العلوم وافانين الصناعات فارتفعت مدارك الشاعر

و يشبهون قصيدة (حزن اوليمبيو)[2] بقصيدة البحيرة التي نظمها الشاعر الشهير لامارتين وترجمها للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدوله العلية في ويانه و باريس سابقاً . ورأيت في كتاب فرنساوي نُشر حديثاً بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم قصيدة لامارتين المذكورة للعربية . ومؤلف هذا الكتاب الفرنساوي فرديناند دي مرتينو وعبد الخالق بك ثروت وعنوانه منتخبات من غزل العرب ترجما فيه من كلام الجاهلية واهل الطبقة الاسلامية ومن اقوال المعاصرين ايضاً مثل حسن حسني ومحمود باشا سامي البارودي واسماعيل باشا صبري وحفني بك ناصيف

***

(١) والنثرة نجمتان صغيرتان يقال لها انف الاسد

(٢) اوليمبيو اسم لامعنى له ولا هو من الاسماء التاريخية وانما كنى به الشاعر عن نفسه

هذا ما نظمه فيكتور هوكو من الشعر الموسيقي في الدور الاول من حياته . واما ما نظمه في الدور الثاني اي في منفاه فهو اعلى طبقة واحسن ديباجة واشد تأثيرًا واهاجة واكثر توقدًا وتوهجًا لان قريحته نضجت في شمس الغربة وهو معتزل عن الناس بتلك الجزيرة . واستبحر فكره بمجاورته المحيط الغربي لان للجوار حقًّا . فنظم احسن مؤلفاته وهي ديوان القصاص وديوان التأملات وديوان سير الدهور . فابلغ هجاء لفيكتور هوكو ماهجا به نابوليون الثالث في ديوان القصاص والجع رثاء له مارثى به بنته في ديوان التأملات . واحسن شعر حماسي له ما ورد في ديوان سير الدهور كما قرره العارفون بكلامه

٧ — القصاص

الف فيكتور هوكو ديوان القصاص بعد انقلاب الجمهورية الثانية الى الحكومة الامبراطورية وذلك ان البرنس لويس نابوليون بونابارت بن لويس بونابارت الذي كان ملكًا على هولاندا واخ نابوليون الاول انتخب رئيسًا للجمهورية لاربع سنوات ختامها سنة ١٨٥٢ فحلف امام مجلس نواب الامة وبحضور فيكتور هوكو الذي كان عضوًا فيه على ان لا يبدل القوانين الموضوعة ولا يخالف احكام القانون الاساسي ولا يخون عهد الجمهورية . ثم صارت الاكثرية في المجلس لحزب الاورليانيين وارادوا تولية كونت باريس وهو شاب من العائلة الملوكية في فرانسا . وكان يعارضهم حزب الوارثين الذين يقولون بان حق الوراثة في الملك انما هي لكونت شامبور فهو الذي ينبغي توليته على سرير الملك الفرنساوي . فاغتنم رئيس الجمهورية هذه الفرصة وكان حق الوراثة في الامبراطورية التي اسسها نابوليون الاول منتقلاً اليه لوفاة نابوليون الثاني عند اهل امه في فيينا وهو الملقب ليكلون اي النُّسَيْر ودوق ريشتاد . وكان لنابوليون الاول شهرة عظيمة واعتبار زائد في نظر افراد الامة فاخذ رجال المعية وحاشية القصر يشوقون ابن اخيه على الاستبداد بالامر كما يفعل المقربون من اولي الامر في كل جيل وفي كل امة وكما فعلت بطانة هارون الرشيد ودسوا للمغنيين الشعر المهيج واحتالوا على سماعه للخليفة تحريضًا له على البرامكة ومن هذا الشعر قولهم

ليت هندًا انجزتنا ماتعد وشفت انفسنا مما تجد
واستبدَّت مرة واحدة انما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال اي والله اني عاجز حتى بعثوا اليَّ بامثال هذا . وهكذا كانت بطانة البرنس بونابارت رئيس الجمهورية يغرونه على الاستبداد ونكث العهد وقلب الحكومة .

ففي ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ اي قبل حلول الاجل المضروب لانتهاء رئاسته نكث الايمان الذي حلفها وغير القانون الاساسي الذي تعهد برعاية احكامه وعدم تغيير مضمونه و بدله بقانون اساسي آخر يخوله حق البقاء في رئاسة الجمهورية عشر سنين . ثم ابدله ايضاً بقانون اساسي ثالث اعلن به الحكومة الامبراطورية بدل الحكومة الجمهورية . وصدقت الامة على هذين القانونين وكان عدد اصوات المصدقين يزيد على ٧ ملايين صوت . فاعلن لويس نابوليون امبراطوراً على فرانسا وتلقب بنابوليون الثالث . وشرع في اضطهاد المخالفين لسياسته وتعذيبهم . ففرّ فيكتور هوكو من بطشه وبعث يقول له بما معناه

وحلفت انك لا تميل مع الهوى اين اليمين واين ما عاهدتني

فاجاب لسان الحال عن نابوليون الثالث

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وخرج مشير القصر الامبراطوري يجول بالعساكر في شوارع باريس و يقول بما معناه

ان المعالي عروس غير وامقة مالم تخلق ردايها برشح دم

وكان اول هذا الملك من رجل سعى الى ان دعوه سيد الامم

فهذا الرجل هو نابوليون الاول الذي لا يختلف في شجاعته ومهارته اثنان ولكن عساكر الامبراطورية الثانية لم تظهر البسالة على قول فيكتور هوكو الا في طرق باريس وميادينها بقتل احرار الرجال بل والنساء والاطفال ونفيهم من الارض وتغريبهم على الجواري المنشآت في البحر . ولما انتشبت الحرب بينهم و بين جيرانهم ولوا مدبرين ولذا كان يقول لهم الشاعر متهكماً « اسد عليّ وفي الحروب نعامة » . على انا نحن معشر العثمانيين لا ننكر بسالة عساكر الامبراطورية ولا شجاعة ماقمهون حينما صعد على قلعة مالاكوف في مدينة سباستابول من شبه جزيرة القرم فقيل له بان الروس وضعت تحت البرج بارودا لتطيره فاجاب (انا هنا واقعد هنا) فذهبت مثلاً وكان ذلك في الحرب التي حدثت بين الدولة العلية والروسيا سنة ١٨٥٥ وكانت فرانسا وانكلتره متفقتين مع العثمانيين

يشتمل ديوان القصاص على نحو مائة منظومة تفجرت منها سهام السخط والغضب وتساقطت كالرجوم والشهب على نابوليون الثالث وعلى اشياعه واحزابه ولم يدع منهم احداً الا وعرض به ورماه بنبال هجوه فندد باعضاء (مجلس المبعوثان)[1] و(مجلس الاعيان)

(١) مجلس المبعوثان هو مجلس نواب الامة والالف والنون ليست للتثنية وانما هي اداة جمع بالفارسية

لتصديقهم على لائحة القانون الاساسي للحكومة الامبراطورية · وبالذين نفذوا هذا القانون من الوزراء وامراء العسكرية وسائر رجال الدولة والمعية · وبالذين تملقوا لرجال القصر الامبراطوري وقبلوا اعتنابهم جرًّا لمغنم او دفعًا لمغرم · وبالحكام الذين راعوا خواطرهم في الاحكام وحكموا على احرار الرجال بل والنساء بالحبس والنفي والاعدام · وبالاقسة والرهبان الذين دعوا في كنائسهم بتأييد عز الدولة الامبراطورية · وسلق الجميع بالسنة حداد · وكلما ذكر سيئة او رذيلة لنابوليون الثالث قارنها بحسنة او فضيلة من حسنات نابوليون الاول وفضائله ولذا لقب الاول بالكبير والثالث بالصغير فورد في اشعاره كثير مما يسميه ادباؤنا في فن البديع بالطباق وهو الجمع بين متضادين سيما في الهجوية التي عنوانها الاستغفار او تكفير السيئآت فانه جعلها فيه على طرفي نقيض · فاهاجي ديوان القصاص تتخللها اشعار المدح والحماسة · وفي هذا الديوان ايضًا (رثاء في الذين قتلوا في حادثة ٤ ديسمبر) وتحانين الذين اخرجوا من ديارهم ونفوا بعيدين عنها واناشيد (الذين سفّروا على البحر ووصف حالة اولئك المصابين والمحكومين والمنفيين وحنينهم الى اوطانهم وشوقهم لمن تركوه فيها من الارامل والايتام ومن الاخوات والبنات او الآباء والامهات اللواتي يبكين عليهم بكاء الخنساء على اخيها مما تنفطر له القلوب وتتفتت الاكباد لا سيما من قرأ شعره وهو يتألم بلدغة الاستبداد

فمما ورد في هذا الديوان من بدائع المعاني القصيدة الثالثة من الفصل الثاني وعنوانها (تذكار ليلة ٤) وهي الليلة الثانية من جلوس نابوليون على تخت الامبراطورية · نظمها الشاعر ليلة عيد الجلوس سنة ١٨٥٢ وصور فيها ماشاهده في تلك الليلة وجسم الحادثة بكيفية بديعة ومضمونها ان صبيًّا يتيماً حسن الصورة حسن الاخلاق كان يلعب مع الصبيان امام دارهم فاصابته رصاصتان من بنادق عسكر الامبراطورية وهم يتجولون في شوارع باريس لارهاب الناس وتسكينهم · ولم يكن لهذا الصبي المقتول الا جد وجدة طاعنان في السن ليس لهما وارث سواه · فادخلته جدته الدار والدم يسيل من جراحاته ومات بين يديها فاخذت تنوح وتلطم وتقول واسوأتاه ! واحسرتاه ! كيف اعيش بعدك يا ولدي ومهجة كبدي · لم تخلف لي امك سواك · افهموني انتم يا حاضرون لماذا قتلوه ؟ اريد ان تعرفوني السبب · الصبي لم يصرخ لتحيَ الجمهورية

قال الشاعر اما نحن فكنا واقفين صامتين مدهوشين وفرائصنا ترتعد امام هذا المأتم الذي لا عزاء له · · · · الى ان قال لها مخاطبًا

ايتها الجدة انك لا تفهمين السياسة ابداً . الموسيو نابوليون — وهذا اسمه الصحيح — فقير بل واسير ايضاً (برنس) . يجب القصور ويقتضي ان يكون له خيل وخدم ونقود للعب القمار ولسفرة الطعام ولخزائن الملبوسات وللخروج للصيد . وبهذه الوسيلة يخلص العائلة والكنيسة والجمعية . ويريد ان يكون قصر سن كلو مملوءاً بالورد طول الصيف لتأتي اليه ولاة البلاد واعيانها ويسجدوا له . فهذا هو السبب الذي اوجب الجدات العجائز ان ان يخطن باصابعهن المرتجفة من الهرم اكفان صبيان لم يتجاوزوا من العمر سبع سنين

والقصيدة السادسة من الفصل الثالث عنوانها (الشرقية) قال فيها

لما رأى عبد القادر وهو في سجنه قد دخل عليه ذاك الرجل الضيق العينان الذي يسميه التاريخ نابوليون الثالث قال مزدرياً من يكون هذا الرجل ؟ رأى وهو في نافذته رجل قصر الايليزة الاحول يمشي وخلفه قطيع كالغنم في خدمته . اما هو فكان اسد الصحراء والسلطان الذي ولد تحت اشجار النخيل وصاحب السباع الكاسره . فهو الحاج الثائر وعيناه هاديتان . والامير المفكر الشديد الرحيم . وهو رجل عابس متشائم وشبح اصفر في برنس ابيض . وثب وهو خران بمداومة الحرب ثم وقع في الظل على الركب . وهو الذي يصلي على قارعة الطريق ويجلس في الخباء المرفوع الاطناب ويرى النجوم يديه المصبوغتين بدم الانسان وهو ساكن الجأش . وهو الذي يسقي السيوف ويجلس على الرؤوس المقطوعة مفكراً في بديع خلق السموات . فلما رأى لحظ هذا الرجل الخائن المحتال وجبهته المظلمة من الخجل احجم عنه هو العسكري الجميل والشيخ المهيب الجليل ونفر من شاربي ذاك الشنيع [1]

فقيل له انظر ايها الامير بلطاة العساكر وهي مارة فهذا الرجل هو قيصر الحرامي . اسمع هذه الشكايات المرة وهذا الصراخ المتعال . فهذا الرجل الذي لعنته الامهات ولعنته الزوجات . لانه رملهن وكسر قلوبهن . واخذ فرانسا وقتلها وهو الآن يلغ في دمها . فحينئذ سلم عليه الحاج عبد القادر . ولكنه في الباطن احتقر هذا الدني الدموي . فهذا النمر الاشم الانف شم ذاك الذئب وهو مستخف به . اه

نظم فيكتور هوكو هذه الهجوية وهو في جزيرة جرسي في نوفمبر سنة ١٨٥٢ وكان الامبراطور نابوليون بعد جلوسه يذهب للاصطياف في مدينة بو التي هي من اجمل المدن

(١) وكان نابوليون الثالث ذا شاربين افقيين مستطيلين بخلاف امبراطور المانيا الحالي كيليوم الثاني

الفرنساوية على حدود جبال البيرينه وفي مدينة بياريس التي على ساحل المحيط الغربي بالقرب من الحدود الاسبانية فزار في احدى سفراته الامير عبد القادر الجزائري ولطفه واطلق سراحه

فان هذا الامير الخطير بعد ان ثبت أمام الفرنساويين ١٥ سنة واظهر من البسالة والدراية في الحرب ما لامزيد عليه اضطر سنة ١٢٦٤ على تسليم نفسه فسيره الدوق دومال والي الجزائر في ذلك الحين الى فرانسا . فانزل في قصر لا مانع من مدينة طولون . ثم نقل منه الى قصر مدينة بو ويسمى قصر هنري الرابع وهو من أحسن القصور بناءً وزينة ولم يزل السائح يشاهد فيه الدائرة التي سكنها الامير عبد القادر سنة ١٨٤٨ م ثم نقل منه الى قصر امبواز وهو بالقرب من مدينة تور التي انتهت اليها فتوحات العرب في اوائل القرن الثاني من الهجرة . وفي سنة ١٢٦٩ هـ حضر الامير عبد القادر للاستانة ونال التفات السلطان عبد المجيد وذهب يقيم في مدينة بروسه ولما حصلت فيها الزلازل ارتحل عنها الى دمشق سنة ١٢٧٢ هـ وتوفي سنة ١٣٠٠ هـ في قصره الذي بقرية دامر فنقل نعشه الى الصالحية ودفن بتربة محيي الدين بن العربي رحمهم الله جميعاً . والامير عبد القادر هو رب السيف والقلم وله تاليف معتبرة مطبوعة وترجم احداها للفرنساوية الموسيو دوغا . وكان الامير عضواً فخرياً في الجمعية العلمية الفرنساوية

ومما في هذا الديوان من الاهاجي والمناجات البليغة المنظومة الثالثة من الفصل السادس وعنوانها (دعاء المغربين) وفيها توسلات الاهية ومخاطبات لحمام الوادي ونسيم الصبا كانها مترجمة عن العربية قال فيها :

يا الله يا كبير اليك ترتفع اكفنا ونحوك تشخص ابصارنا . اللهم ان هؤلاء المكبلين بالحديد وعبراتهم تسيل على الخدود لهم اشد الممتحنين بلاءً مع انهم اصلح الناس حالاً . ايتها الطيور المارة ان هناك منازلنا . ايتها الرياح الجارية ان هناك اخواتنا وامهاتنا يبكين ليلاً نهاراً . بلغهم يا طير بؤسنا . واحمل اليهم يا نسيم الصبا اشواقنا . وانت يا الله نرسل اليك فكرنا . ونسئلك ان تنسى هؤلاء المحكوم عليهم بالقتل ظلماً ولكن ان تجعل مجدهم لفرانسا المهانة وان تتركنا نحن المظلومين نموت في هذا العذاب الاليم ..... الخ .

وهذا يذكرنا بقول ابن المعتز حينما أخذ ليقتل

يا نفس صبراً لعل الخير عقباك خانتك من بعد طول الامن دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتني اياك طوباك

ان كان قصدك شوقاً بالسلام على شاطي الفرات ابلغي ان كان مثواك
من موثق بالمنايا لا فكاك له يبكي الدماء على الف له باكي

ولا أدري ان كان لها بقية ام لا ولكن الغالب في الشعر العربي ان يعلو به النفس ثم ينقطع قبل ان يشفي غليل النفس بذكر الوسط الذي يقوم فيه الشاعر وشرحه وتوصيفه بجميع ما فيه كما يفعل شعراء الافرنج • نعم ان شعراء الجاهلية ومن نسج على منوالهم شرحوا اوصاف الفرس أو الناقة مثلاً واطنبوا في ذلك ولم يتركوا عضواً ولا حركة ولا هيئة الا ذكروها وتخيلوا فيها ولكنهم مع ذلك حصروا نظرهم في نقطة واحدة ولم يلتفتوا يميناً وشمالاً الى ما حولهم من مناظر الطبيعة وبدائع المخلوقات

وابن المعتز اشعر بني هاشم وهو ابن الخلفية العباسي المعتز بالله بن المتوكل ويسمى خليفة يوم لانه ولي الخلافة يوماً واحداً ثم خانته الايام وغدرت به السياسة فسلم لمؤنس الخادم فقتله • وتشبيهات ابن المعتز واشعاره مشهورة ومن مؤلفاته كتاب الزهر والرياض، كتاب البديع ، كتاب مكاتبات الاخوان بالشعر ، كتاب الجوارح والعين ، كتاب السرقات ، كتاب اشعار الملوك ، كتاب الآداب ، كتاب حلي الاخبار ، طبقات الشعراء كتاب الجامع في الغناء ، ارجوزة ذم الصبوح • ومن قوله

سقى الحظيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر
فطالما نبهتني للصبوح بها في غرة الفجر والعصفور لم يطر

ومن كلامه البديع قوله : انفاس الحي خطاه الى اجله • وكان مستجمعاً للكمالات الانسانية وقيل في رثاه

ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه وانما ادركته حرفة الادب

قرأ على المبرد وثعلب وتاريخ ولادته (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ)

والفصل السابع من هذا الديوان هجوية عنوانها (هاتين قدوركنّ يا ساحرات شكسبير) اشارة الى رواية ماقبث التي ألفها شكسبير وما فيها من خبر الساحرات اللواتي يطبخن السحر في القدور ويفتحن للنساء الفال فقال فيكتور هوكو هاتين قدوركن يا ساحرات شكسبير • وخذن عني يا ساحرات ماقبث كل الامبراطورية من قديمة وحديثة • وضعن في كانون واحد برجه السمين والكونت فروشو وفلان وفلان •••• وعدداً كثيراً من رجال نابوليون الى ان قال واحنين رؤوسكن وانفشن شعوركن وحملقن عيونكن واكشفن نحوركن وانفخن بملء رئاتكن على النار التي تحت القرعة

وانظرن فان الصغير يخرج من الكبير وصيرن باروش وطاليران بخارا وكذا ابن الاخ الذي يهبط بينما ان العم يعلو • فما الذي بقي في قعر الانبيق ؟ العار

فكان فيكتور هوكو وهو في جزيرة جرسي كلما سمع بنفي المتهمين بالسياسة لبلاد الجزائر او لاميركا يفور غضبه ويشتد غيظه ويهدر كهدير البحر • وشبه السفن التي تحمل المنفيين بالبوم التي تنادي على خراب البلاد بابعاد نخبة الشبان الاحرار منها • ولكنه مع ذلك لم ينقطع رجاه ولا خابت امانيه بل كلما نظر في المستقبل لاح له قبس الفلاح ولمع في عينيه نور الصباح وراقت أشعاره وصفا كلامه ولذا شبهوه بالبحر الذي يهيج تارة ويسكن أخرى • وله في البحر تشابيه واستعارات لم يسبق اليها • وقال في خاتمة هذا الديوان بأنه سوف ينبلج صبح العدل ويزهق ليل الباطل ان الباطل كان زهوقا • وانذر باستيقاظ الامة من رقدة الغفلة ومجازاتها الظالمين المستبدين المجرمين • ان المجرمين في ضلال وسعر • ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً • ولو اطلع السيد عبد الله نديم على ديوان القصاص لما حرر كتاب المسامير

٨ • — ديوان التأملات

وعرف هذا الديوان بتسميته أيضاً سانحات الفكر ولخص فيه أعمال ربع قرن من حياته وما شعر به من فرح وترح وقال في مقدمته بأنه تاريخ حظ من الحظوظ البشرية في شقائه وسعادته أو هو ديوان الحياة الانسانية منذ خرجت من معمي المهد الى ان نزلت في معمي اللحد • وأبواب هذا الكتاب هي : الفجر ، النفس الزاهرة ، التنازع والاماني ، في المسير ، على ساحل اللامتناهي • ومنها يفهم فكر الشاعر في ترتيب المنازل التي يقطعها المسافر في طريق الحياة • وأجاد في وصف المناظر الطبيعية وتصوير وجوه الارض على حد قول أبي تمام

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد زانه ... زهر الربا فكانما هو مقمر

ومن ذلك أيضاً قول القاضي عياض وقد تولى قضاء سبتة وغرناطه

انظر الى الزرع وخاماته ... تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة ... شقائق النعمان فيها جراح

وأبدع ما في هذا الديوان الرثاء الذي رثى بنته حينما انشبت فيها المنية اظفارها وهي

في ريعان الشباب واشهر العرس وأتى بالبدائع والعجائب في وصف قلب الوالد على ولده وما يكابده بسبب موته من آلام الحياة وعذابها . ولعله تابع في النظم شعوره واحساسه فجعل أول المراثي تفجعاً وبكاءً . ثم ارتفع صوته بالنحيب والعويل . ثم زاد ألم الرزية عليه وكبرت المصيبة في عينيه فصار يهدر كما يهدر المجنون ولا يعي ما يقول فطوراً يقاتل القضاء وتارة يلعن القدر وانقطع من الدنيا وزال رجاؤه بالآخرة ويئس من هذه الحياة الفانية

ثم برد قلبه شيئاً فشيئاً وهدأ باله رويداً رويداً فصار يندب ميته ويعدد محاسنها ويتذكر زمان طفوليتها وشبابها وعرسها وكل ذاكرة منه تسيل من عينيه عبره وتودع في قلبه حسره . ولم يرَ له ملجأً الا في تسليم الامر لله والرضاء بما قدره وقضاه فصبر على البلاء ورجع بانكسار وتزلل الى الله وانكب على اعتاب مراحمه كأنه عمل بنصيحة الشيخ محمد عليش حيث قال

الزم باب ربك واترك كل دون واسئله السلامه من دار الفتون
لا يضيق صدرك فالحادث يهون الله المقدر والعالم شؤون
لا تكثر همك ما قدر يكون

نحن والخلائق كلنا عبيد والاله فينا يفعل ما يريد
همك واغتمامك ويحك لا يفيد القضا تحكم فالزم السكون
لا تكثر همك ما قدر يكون

ومنها ايضاً : مولاك المهيمن انه يراك فوض له امورك واحسن في الظنون
ومنها الرضا فريضه والسخط حرام والقنوع راحه والطمع جنون

واجمع رثاء واحسن توسل لفيكتور هوكو ما جاء في المرثية التي عنوانها (الى فيلكيه) وهي المدينة التي غرقت بقربها ليوبولدين وهي تتنزه مع زوجها في زورق على نهر السين وقد اتينا على ترجمتها بالحرف بياناً لاسلوبه في التفجع والرثاء . قال فيكتور هوكو وكان خرج من باريس وذهب الى جبال البيرينه وسواحل المحيط الغربي :

الى فيلكيه

الآن باريسُ وطُرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عينيّ . الآن انا تحت غصون الايك واستطيع التفكر في حسن السموات . الآن خرجتُ مصفرًّا من المأتم الذي اظلمتْ منه روحي وشعرتُ بان سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي

الآن استطعتُ ان اجلس على شاطئ البحر متاثرًا من هذا الافق اللطيف المادي وان اخص في ضميري عن الحقائق الفاضة وان انظر الى الازهار وهي في الحدائق

الآن ياربي ، حصلتْ لي سكينةٌ محزنةٌ استطيع بسببها ان ارى بعيني رأسي الحجرَ الذي أعرفُ انها نامتْ في الظل تحته نومةً ابدية

الآن قد رقّت عواطفي بهذه المناظر الالهية ما بين سهولٍ وغاباتٍ وصخور واودية ونهر كالفضة

ولما رأيتُ عجزي ورأيتُ معجزاتك رجع لي عقلي امام جلالك فجئتُ اليك يا الله يامن يجبُ علينا الايمان به . واحضرت لك قطعَ هذا القلب الذي كسرتَه وهو مملوءٌ بحمدك

جئتُ اليك يا الله ، معترف بانك رؤُف رحيم حليم وبانك اله حي . وأُقر بانك وحدك تعلمُ ما تصنعه وبان الانسان ماهو الا ريشة في مهب الريح

اقول بأن القبر الذي ينغلق على الاموات يفتحُ الفلك الاعلى . وان مانحسبه في هذه الدنيا نهايةً هو البداية

أُقرُّ ايها الاله العظيم وانا راكع بأنك وحدك مالكٌ لما هو حقيقي ، مطلق ، لا نهاية له . أُقرُّ بأن انجراح قلبي هو خيرٌ وهو عدل . لان الله اراد ذلك

لا أعترضُ اصلاً على جميع ما اصابني بارادتك . فالنفس تتدحرج في الابدية من مأتم لمأتم والانسان يتدحرج من ساحل لساحل

لا نرى من الاشياء الا طرَفًا واحدًا والطرَفُ الآخر غاطس في سرليل مرعب . فالانسان يتحمل الاذى بدون ان يطّلع على الاسباب . وجميع ما يراه قصير ، زائل ، لا فائدة فيه

انت تلقي الانسان دائمًا في طريق الشك ولم تُرِدْ ان يكون له على هذه الارض يقين ولا سرور

لا يملك الانسان خيرًا الا ويستردّه القدرُ منه فهو لم يُعطَ شيئًا في ايامه السريعة الزوال ليتمكن ان يتخذ له مسكنًا ويقول : هنا بيتي وارضي واحبائي . جميع ما تراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت هذه الاشياء واقعة وأنا أُقرُّ بانها حدثت كما يلزم ان تحدث[1] . يا الله ! العالمُ مظلمٌ . والحانه التي لا تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء ايضًا . والانسان ماهو الا ذرة في هذا الظلام الغير المتناهي .

(١) ليس في الامكان ابدع مما كان . لو اطلعتم لقلتم الخيرة في الواقع

فهذا ليلٌ يصعد فيه الابرار وينحط الاشرار . أعرفُ بان لك يا الله اشياءَ اخرى كثيرة تشتغل بها عوضاً عن ان تشفق علينا جميعاً وبأن الولد الذي يموت ويخلّفُ الحزن لامه لا يضرك منه شيءٌ

أعرفُ بان الثمر يسقط من الريح الذي يهزه وبان الطير يفقد ريشه والزهر يفقد رائحته وبأن الخليقة دولاب كبير لا يمكنه ان يدور بدون ان يسحق احداً

الشهور، والايام، وامواج البحر، والعيون الذارفة بالبكاء تمر جميعها تحت السماء الازرق أعرفُ ياربي انه يلزم للعشب ان ينبت وللاولاد ان يموتوا . لعلك في سمواتك ما وراء طبقة الغيم وفي اعماق هذه الزرقة النائمة التي لا تتحرك تصنعُ اشياءً مجهولةً يدخل فيها ألم الانسان كأنه عنصر من عناصرها

لعل هلاك الاشخاص الملاح بتيار المصائب فيه فائدةٌ لمقاصدك التي لا تحصى . طوالعُ نحوسنا تسير تحت نواميس واسعة لا يغيرها شيءٌ ولا يرقّق عواطفها شيءٌ . وليس في الامكان ان تأتي المراحم الالهية فجأةً وتغيّر ناموس العالم

اتوسل اليك يا الله بان تنظر لنفسي وتعتبر باني اتيت لعبادتك خاضعاً خضوع الصبي ولينًا لين المرأة

واعتبرْ ايضاً بأني منذ طلوع الفجر اشتغلت وقاتلت وافتكرت وسعيت وجادلت وانا افسر الطبيعة للناس الذين يجهلونها وانير كل شيءٍ بنورك . واني عملت الواجب عليّ في هذه الدنيا وانا اقتحم المهالك والمخاطر ولا يمكني ان انتظر هذا الجزاء ولا اقدر ان اتأمل بانك انت ايضاً تنزّلُ يدَ بطشك على رأس المنحني وبأنك انت الذي ترى قلة حظي تأخذ ايضاً ولدي على عجل . واعتبر بان النفس التي اصيبت بمثل هذه المصيبة هي مدفوعة على الشكوى . وبأني اجترأت على سبك وعلى رفع صوتي عليك كالولد الذي يرمي البحر بحجر .

إعتبرْ ياربي بان المرء قد يشكُّ في الله حينما يشتد عليه الالم . وان العين التي تبكي كثيراً تعمى في النهاية . وان الشخص الذي يُلقيه مأتمه في اظلم هاويةٍ لا يمكنه ان يَضْرَعَ اليك وهو لا يراك

اليومَ وانا ضعيف القلب كالوالدة المنحني على اعتابك تحت سمواتك المنكشفة واشعر في مرارة ألمي باني استنرت بنظرة وقعت مني على العالم

ياربي ، انا اعترفُ بان الانسان اذا جسر على الشكوى منك فهو في حالة الجنون . وها انا تركت الشكوى وتركت السبَّ . فدعني ابكي . واحسرتاه ! دعْ الدموع تجري في

جفوني لانك خلقتَ البشر لذلك . دعني انحني على هذا الحجر البارد واقول لولدي : اتشعرين باني هنا ؟

دعني اكلمها في المساء حينما يسكن كلُّ شيءٍ وانا منحنٍ على مابقي من جسدها وهي كأنها مَلَك ينصت لي وكأنها تفتح في الليل عينيها السماويتين

واحسرتاه ! لم يبق في الدنيا شيءٌ يسليني . فالتفتُّ نحو الماضي بعين الاشتياق ونظرتُ الى تلك اللحظة من حياتي فرأيتها تفتح جناحيها وتطير . وسأرى تلك اللحظة حتى مماتي . تلك اللحظة التي فاضت فيها دموعي وصرختُ قائلاً : ماذا اذاً الولد الذي كان لي الآن فقدته بالكلية !

لا تغضب عليَّ باربي ان قلت هذا . لان جرحي سال دمه زماناً طويلاً والضيق في نفسي لم يزل شديداً . وقلبي وان خضع لكنه لم يسلم ولم يرضَ

لا تغضب ياربي ! حيث يصعب علينا ان نخرج نفسنا من هذه الاكدار العظيمة . انت ياربي اعلم بان اولادنا لازمون لنا . اذا رأى الانسان ذات يوم في حياته وهو بين اكداره واتعابه وفقره والبلاء الذي رمته به اقدارُه قد وُلد له ولد جميل ضاحك بشوش يخال انه رأى باب السموات فتح له . فاذا رأى مدة سبع عشرة سنة ولده الذي هو قطعة من جسده يكبر وينمو ويعقل واذا عرف ان هذا الولد الذي يحبه هو نورٌ في قلوبنا وضياءٌ في بيوتنا وانه هو السرور الوحيد الذي لنا من جميع ما نتمناه في هذه الدنيا . فلا يخفى عليك ياربي انه اذا فقدَ منا يكون حزننا عليه عظيماً . اه فيلكيه في ٤ سبتمبر سنة ١٨٤٧

وبعد ان طال رثاء فيكتور هوكو وندبه حصلت له الفة بالموت واعتاد عليه . فانحنى على القبر كأنه يريد انتزاع السر المكنون فيه ونظم قصائده التي عنوانها (كلام على الكثيب) و(وقفة في المسير) و(ماهو الموت) . ولكن لم يتيسر له رفع الستر عن القبر ولا ازالة الحجاب عن هذا الباب . واكثر في كلامه من توحيد الله وذكر الآخرة وخلود النفس

ومن القصائد المشهورة في رثاء الاولاد القصيدة العينية التي نظمها ابو ذؤيب الهذلي المتوفي سنة ٢٧ للهجرة وكان مات له في سنة واحدة خمسة اولاد في الطاعون الذي حدث بمصر ومطلع قصيدته

امن المنون وريبه تتوجع ... والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومنها

اودى بنيَّ فاعقبوني حسرة ... عند الرقاد وعبرة لا تقلع

فالعين بعدهم كأن حداقها ... كحلت بشوك فهي عور تدمع

وفي اشعار فيكتور هوكو مايحاكي كلام ام حكيم زوجة عبيد الله بن عباس والي اليمن من قبل علي رضى الله عنه حينما اتاهما بشر بن ارطاة قائد عساكر معاوية وذبح لهما ابنين صبيين فلم تملك امهما نفسها ولا قدرت ان تقر في مكانها بل كانت تحوم حوم الطير حول وكر صغارها وقد ذهب عقلها وفرغ صبرها فقالت تبكيهما وتولول

هامن احس بابني اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف
هامن احس بابني اللذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
هامن احس بابني اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم مردهف
من ذل والهة حيرى مدلهة على حبيبين ذلاً اذ غدا السلف
خبرت بشراً وماصدقت مازعموا من افكهم ومن القول الذي اقترفوا
انحى عليّ ودجي ابني مرهفه مشحوذة وكذاك الاثم يقترف

ومثل ذلك مراثي شواعر العرب وجمع كلامهن احد افاضل العلماء ونشره في بيروت وسيدة شواعر العرب الخنساء القائلة

اعيني جودا ولا تجمدا الا تبكيان لصخر الندى
الا تبكيان الجري الجميل الا تبكيان الفتى السيدا

ومن شواعر العرب برة بنت عبد المطلب جد النبي عليه السلام قالت في وفاة أبيها

اعيني جودا بدمع درر على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد فياض الزناد جميل المحيا عظيم الخطر

والبكاء على الاموات وندبهم من عادة نساء العرب ولذا نبغت فيه الشواعر منهن سيما وان قلب المرأة أرق وأحن ولذا قال فيكتور هوكو بانه صار ضعيف القلب كالوالدة ٠

ومما ورد للعرب في هذا المعنى قول أبي بكر بن زهر الاندلسي

ولي ولد مثل فرخ القطا صغير تخلف قلبي لديه
وافردت عنه فيا وحشتا لذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني وتشوقته فيبكي عليّ وابكي عليه

وهذا الشاعر الرقيق اشتهر بفن الطب وعلم الادب وسارت الركبان بموشحاته وهو حفيد ابي العلاء بن زهر الطبيب المشهور ٠ وكان صاحب هذه الابيات بُعث به الى مراكش وسم فيها فمات سنة ٥٩٦ هـ وله بنت وأخت ماهرتان في الطب والقيلة نفيتا أيضاً الى مراكش وقتلتا مثل اخيهما بالسم ٠ وابقى ولده في الاندلس فقال الابيات المذكورة متشوقا

٩ — سير الدهور

ديوان جليل ملأه الشاعر بالحكمة والفلسفة فاحوج مطالعه الى الدقة والتبصر فيه ومراجعة كتب التاريخ والفلسفة لفهم دقائق معانيه كما يحتاج لذلك قارىء اللزوميات ورسالة الغفران واشباههما من كتب الادب والفلسفة التي خفيت وقائعها على كثيرين فنسبوا لها الركاكة • ومن هذه الكتب أيضاً ما ألفه الصفدي شرحاً على الطغرائي صاحب لامية العجم والقصائد المعروفة في الكيمياء • ومنها أيضاً ما الفه ابو بكر بن الوحشية صاحب الفلاحة النبطية سنة ٩٠٤ م ومنها نسخة في مكتبة ايا صوفيا • وزعم المستشرق الروسي شولسن [١] بان لابن الوحشية معرفة بعلوم الاراميين والبابليين وفنون أدبهم ومن منظوماته (الشوق المستهام) تكلم فيه عن خطوط المتقدمين وكتاباتهم • وله أيضاً (سدرة المنتهى) بحث فيها عن مواضيع دينية فلسفية • ومثل ذلك ايضاً (ازهار الافكار في المعادن والاحجار) لشهاب الدين ابي العباس التفاشي المتوفى سنة ١٢٥٣ م تكلم فيه عن المعادن والاحجار الثمينة وطبعه المستشرق رافيوس [٢] في اوتراخت من هولانده سنة ١٧٨٤ م ثم طبعه كلمان [٣] مولد سنة ١٨٦٨م • ومن ذلك ايضاً ديوان شذور الذهب لبرهان الدين بن أرفع راسه من مدينة جيان في اسبانيا المتوفي سنة ١١٩٧ م في فاس • وغير ذلك

وجمع فيكتور هوكو في هذا الديوان سيراً حماسية انتخبها من تاريخ البشر في القرون الاولى والوسطى والاخرى وصورها في الواح معظمة وسبكها في قوالب مكبرة وقصها قصصاً مفجعة شرح فيها سير الانسان في مراقي العمران وخروجه من الظلمات الى النور ومن قيد العبودية الى سراح الحرية • وجعل الحق للامم والقوة للملوك الجبابرة المستبدين بالرعية • وبين كيفية تغلب الحق على القوة كلما خطا الانسان خطوة في التاريخ وارتقى درجة في سلم الحضارة • وبذلك قاعدة (الحكم لمن غلب) من بين الامم شيئاً فشيئاً ويعلو الحق وينتصر رويداً رويداً لان الحق يعلو ولا يعلى عليه

فنظم فيكتور هوكو في تصوير القرون الاولى قصيدة (تيتان) وسلك فيها طريقة الشاعر اليوناني ايشيل مؤلف رواية (برومته) [٤] المقيد بالسلاسل وبين فيها ظلم الجبارين ومحاربتهم للآلهة ثم سقوطهم في مهاوي الخزلان • أما تيتان [٥] فورد ذكرهم في اساطير

(١) Chwohlsson. (٢) Ravius. (٣) Clément-Mullet

(٤) Prométhée (٥) Titan.

اليونان بانهم من أولاد السماء والارض وقيل بانهم عصوا على الالهة وأرادوا ان يبنوا لهم صرحاً ليبلغوا به اسباب السموات اي نواحيها • فعمدوا الى الجبال ووضعوا جبلاً فوق حتى كادوا يبلغون السماء الدنيا لولا ان كبير الآلهة جوبتير صعقهم بصاعقة دكت الجبال دكا

ونظم فيكتورهوكو أيضاً (ضمير قاين) ويعرف عندنا بقابيل الذي قتل أخاه هابيل ثم ندم على ما فعل [1] • فصور الشاعر ندامته وعين الله ناظرة اليه بالغضب وعظم هذه القصة وجسمها تجسيماً لائقاً برجال ذاك العصر الذين منهم عوج بن عناق • ولشعراء الترك والفرس مبالغات عجيبة في تصوير مثل هذا الموضوع • كالشاعر نفعي الذي وصف شدة الحر وقال بأن زفرة من زفرات النمل كافية لتنشيف البحور السبع وجعلها سراباً ووصف شاعر آخر رستم عنترة الفرس وقال بأن النبل الذي رمى به من قوسه اخترق السموات السبع ودخل في اللامكان • واستخرج فيكتورهوكو من التوراة والاسرائيليات غير هذا الموضوع وصوره كذلك في هذا الديوان

ونظم في تاريخ القرون الوسطى عدة منظومات مثل لاديسلاس وسيجسموند وغيرها من الظلمة وقطاع الطرق الذين توصلوا بالقتل والنهب والحيل والدسائس الى لبس تاج الملك والجلوس على كرسي الامبراطورية • وقارنهما بالسيد ورولان وغيرها من الفوارس الشجعان الذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل النصرانية وتفانوا في الغيرة والحمية الدينية • ورولان هو ابن اخ شارلمان وقائد جيوشه وشارلمان هو الامبراطور المعاصر لهارون الرشيد • وتقدم ذكرهم وذكر السيد ايضاً وهو عنترة الاسبانيين كما ان رولان عنترة الفرنساويين وكلاهما اشتهرا في الحروب مع مسلمي الاندلس • وصور فيكتور هوكو القرون الوسطى بما فيها من المظالم والجرائم الفظيعة واراقة الدماء والاستبداد والنخوة

(١) سورة المائدة : واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قرّبا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين • لئن بسطت اليّ يدك لتقتلني ما انا بباسط يدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين • اني اريد ان تبوء باثمي واثمك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين • فطوّعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين • فبعث الله غراباً يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوأة أخيه قال ياويلتى اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فاواري سوأة اخي فاصبح من النادمين • من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل انه من قتل نفساً بغير نفسٍ او فسادٍ في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ••••••• الخ

الجاهلية والتعصب الديني وأطنب غاية الاطناب في توصيف ذلك وتعظيمه وتجسيمه

ونظم في القرون الاخرى مقبرة ايلو وهو مكان في المانيا انتصر فيه نابوليون على عساكر الروس وبروسيا • ونظم فصلاً سماه جماعة الظلام وافتتحه بقصيدة عنوانها الحرية قال فيها : بأي حق تضع الطيور في الاقفاص ؟ بأي حق تغتصب هؤلاء المغردين وتحرم منهم الغابات والانهار والفجر والرياح ؟ بأي حق تسلب هؤلاء الاحياء حياتهم ؟ اتظن ايها الانسان بأن الله خلق الجناح لتعلقه على مسمار في بيتك ؟ ألا يمكنك ان تعيش سعيداً مسروراً بدون ذلك ؟ ما الذي فعله هؤلاء المعصومون ليوضعوا في الحبس ؟ من يعلم كيف يمتزج حظهم مع حظنا ؟ من يعلم اذا كان العصفور الذي يُنهب من الاغصان ، ومن يعلم اذا كان الاذى الذي تؤذى به الحيوانات ، واذا كان الاستعباد الذي يجري على البهائم بلا فائدة لا ينقلب على رؤوسنا ظلماً كظلم نيرون ؟ من يعلم اذا كان زنجير الحبس لم يخرج من ارسان الحيوانات ؟ ••••••

خذ حذرك من العدالة الالهية لان الله ينظر الى المكان الذي يبكي الاسير فيه ويصرخ • ألا تفهم أيها الانسان بانك ظالم ؟ اطلق سراح هؤلاء المحبوسين ودع البلابل تطير في الحدائق • فميزان العدالة وان اختفى عن الاعين فله كفتان تزن الاعمال •••• الخ •• الخ •

ونظم قصيدة أخرى عنوانها (الحرامي والملك) وبين المشابهة بينهما وما يرجح به كل واحد على صاحبه • ونظم قصيدة أخرى عنوانها (للملوك) خاطبهم فيها بكلام ترتعد منه الفرائص وتقشعر الجلود فقال لهم : اتظنون انتم بانا نحن نحبكم ! نحن الذين نشتغل في هذه الارض ونستخرج ثروتها ونكد ونجد في حر الشمس وبرد الشتاء ولا ننال من اتعابنا غير الجوع والعطش • وانتم على سرر مرفوعة من العز والنعيم • وعلى جانب من التبذير والاسراف والفحش • نحن الخدم وانتم الملوك • نحن الغنم وانتم الذئاب • نحن الفريسة وانتم المفترسون • تبنون القصور والسرايات من أموالنا وأتعابنا وترتعون فيها وتلعبون ونحن نقاسي نزاع الموت على لقمة • لا شغل لكم الا الاكل والنوم والسكر والفحش والقتل والظلم • فانتم لا فرق بينكم وبين الاسود الكاسرة والوحوش الضارية •••• الخ • الخ •

وأطنب فيكتور هوكو في بيان الحرية وتعريفها باساليب كثيرة وصور مختلفة واشكال متنوعة • ومن كلامه ما ورد على حد قول المعري في اللزوميات :

يكفيك حزناً ذهاب الصالحين معاً ونحن بعدهم في الارض قطان
ان العراق وان الشام مذ زمن صفرانِ ما بهما للملك سلطانُ
ساسَ الانامَ شياطينٌ مسلطة في كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمصَ الناس كلهم ان بات يشرب خمراً وهو مِبطانُ
تشابه النجرُ فالرومي مَنطقه كمنطق العرْب والطائيُّ مِرْطانُ
أما كلاب فاغنى من ثعالبهم كأنّ أرماحهم في الحرب اشطانُ
متى يقومُ امامٌ يستقيد لنا فتعرف العدلَ اجبالٌ وغيطانُ
صلوا بحيث أردتم فالبلاد أذى كأنما كلها للابل اعطانُ

وقال ايضاً

ملّ المقام فكم اعاشر أمةً أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدَوْا مصالحها وهم اجراؤها

وقال ايضاً

يا ملوك البلاد فزتم بنسْءِ العمر والجور شأنكم في النساء
مالكم لا ترون طرقَ المعالي قد يزور الهيجاء زير نساء
يرتجي الناس ان يقومَ امامٌ ناطق في الكتيبة الخرساء
كذب الظن لا امام سوى العقل مشيراً في صبحه والمساء
فاذا ما اطعته جلب الرحمة عند المسير والارساء
انما هذه المذاهبُ اسبابٌ لجذب الدنيا الى الرؤساء

قطان اي سكان . صفران اي خاليان من الحكومة العادلة . الخمص الجوع تقول خمصه الجوع خمصاً ومخمصه . المبطان الذي لا يزال ضخم البطن من كثرة الاكل . النجر الاصل . مرطان مفعال من الرطانة وهي كل كلام لا يفهم . وما اصدق هذا البيت على اهل زماننا فان اكثر المشتغلين بادب العرب وكتبهم هم من غير العرب بل ومن غير المسلمين . يستقيد من القود وهو القصاص الذي فيه الحياة والعدل والوصول الى الحقوق . الاعطان مبارك الابل ومرابض الغنم . الشطن بفتحتين الحبل وجمعه اشطان . عدوا مصالحها اي تعدوا على مصالحها وجاروا فيها . نسيء العمران تاخيره . والنساء جباية الاموال . زير النساء كثير الزيارة للنساء . الكتيبة الجيش . والخرساء الذين لا يسمع لهم صوت لقلة كلامهم

غرضُ القوم متعةٌ لا يرقُبون لدمع الشماء والخنساء
كالذي قام يجمع الزنج بالبصره والقرمطي بالاحساء
فانفرد ما استطعت فالقائل الصادق يضحى ثقيلاً على الجلساء

ومما يحاكي بعض ابيات قصيدة الحرية المتقدم ذكرها قول المعري

أعاذلَ ان ظلمتنا الملوك فنحن على ضعفنا اظلم
توسطْ بنا سائراتِ الرِّفـ ـاق لعل ركائبنا تسلم
الى ان قال فلا تغبطنَّ ذوي نعمة بخلفهم وقعة صيلم
تسامت قريش الى ما علمت واستأثر الترك والديلم
وهل ينكر العقلُ ان يستبدّ بالملك غانيةٌ غيلم
وما ظفرُ الملك في جيشه سوى ظُفرٍ بالردى يقلم

وقوله

واقصاني من الرؤساء كوني وكونهم لخالقنا عبيدا

وقوله

قد عمنا الغشُّ وأزرى بنا في زمنٍ اعوزَ فيه الخصوص
ان نصح السلطان في امره رأى ذوي النصح بعين الشصوص
وكل من فوق الترى خائن حتى عدولُ المصر مثل اللصوص

وقوله

لقد ساس اهل الارض قومٌ تفتقتْ امورٌ فما ألفتْ لهم يدَ رائق
هم هتكوا بالراح استار عاذل ولم يحفظوا بالنسك حرمة ناتق
اذا جرحوا دنًّا فلم يرجُ عندهم قصاصاً اجادوا قتل عذراء عانق
وصاغوا بما تجنى الولاةُ مراكنًا وزادوا على اسيافهم والمناتق

الشماء التي استوت قصبة انفها وارتفعت ارنبته والخنساء التي تأخر انفها وقصر واشار بهما هنا الى الشريفة والوضيعة . الذي قام يجمع الزنج علي بن محمد وينتمي لعلي بن ابي طالب . والقرمطي ابو القاسم بن زكرويه وينتمي ايضاً الى علي بن ابي طالب رضي الله عنه وخرج في ايام المكتفي سنة ٢٨٧ هـ . الصيلم الداهية . وقوله تسامت قريش اي تغالبهم ومقاتلة بعضهم بعضاً فكان هذا سبباً لغلبة الترك والديلم عليهم . والغانية الغيلم اي الخنساء يقال للص الذي لا يرى شيئاً الا اتى عليه شص من الشصوص

ولو كان للدنيا لدى الله قيمةٌ لما نظروا في آهلات الرساتق

وقال ايضاً

صاحب الشُرطة ان انصفني فهو خير لي من عدل ظلمْ
من اراد الخير فليعمل له فعليه لذوي اللب علمْ
حكمَ الناسَ غواةٌ مثلما حكمت قبلُ حصاةٌ وزُلَمْ
لا تهاون بصغير من عدًى فقديماً كسر الرمحَ القلم

و يعجبني ماقاله في هذا الباب شاعر العصر احمد شوقي بك من القصيدة التاريخية التي تلاها في مؤتمر المستشرقين في جنوه (جنيف) سنة ١٨٩٤ م قال

ان ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الاسـ ـر فكيف الخلائق العقلاء
يحسب الظالمون ان سيسودو ن وان لن يؤيد الضعفاء
والليالي جوائر مثل ما جا روا وللدهر مثلهم اهواء

١٠ — اغاني الشوارع والاحراج

وهو ديوان كالذي سبق ولا حاجة الى ايراد مثال منه . واما مانظمه فيكتور هوكو في شيخوخته فهو

١١ — السنة المهولة

هجا في بعض هذا الديوان نابوليون الثالث وعد سقوط حكومته الامبراطورية كفارة لما اقترفه من السيآت على زعمه في حادثة ٢ ديسمبر . وبين في بعضه الآخر ما جاد به الفرنساويون من الغيرة والشجاعة في الدفاع عن الاوطان اثناء حرب السبعين الالمانية وما قاموا به من الثبات في حصار باريس . واعتبر الحرب الفرنساوية الالمانية كأنها آخر حلقة لسلسلة الحروب التي اثارتها دول القرون الوسطى المعبر عنهم بالقيوداللينة وهم اشبه شيء بما كان في بلادنا من اصول التيمار والزعامة وبحكومة الامراء الذين قيل لهم (دره بك) . وعد انقطاع تلك السلسلة وزوال هاتيك الافكار العسكرية بظهور الفكر الجديد والتقدم العصري . وتكلم في القسم الثاني من هذا الديوان على ويلات الحرب الاهلية وما اقترفهُ

رتق الفتق اي اصلح الفاسد . عاذل هو العرق الذي يخرج منهُ دم المستحاضة . الناتق كثيرة الاولاد . . المركن يستعمل للماء . الدن خابية الشراب . والعذراء العاتق الخمر القديمة وهي التي لم يفض ختامها احد وقتلها مزجها

الرعاع (كومين) في باريس من الفظائع الدموية واظهر حمقهم وجهالتهم في احراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن المجرمين المغلوبين

١٢ — صناعة كون المرء جدًّا

تكلم في هذا الديوان على الاطفال والاولاد وشبههم بالملائكة واعتبر وجودهم على الارض دليلاً على رحمة الله وتابيداً لما يرجوه الناس من الحياة الآخرة . وكان فيكتور هوكو يطرب لبأبأة الاطفال ومناغاتهم وللعب الصغار وهوشاتهم ويفرح لابتسامهم وضحكهم وتبريق عيونهم وتهلل وجوههم ويحصل لهُ من جميع ذلك تجل واستغراق ظهر اثره في نظمه . وبعد ما اصيب في اولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان) وشغف بهما شغفاً زائداً والتزم تربيتهما بنفسه فكان يشاهد نشوءهما وتفتح الروح والفتاق الذهن فيهما وينظم مطالعاته وما يلهم به من الشعر . فنظم جميع ما يتعلق بالاطفال والاولاد من تهليل وترقيص وتلهية وتلعيب وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونطهم ولعبهم . مثال ذلك القصيدة التي عنوانها (اغاني لترقيص الاولاد الصغار في الحلقة) وكذا المنظومة التي عنوانها ايضاً (حنه كانت في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف) وذلك ان مربيتها جازتها بهذا الجزاء تاديباً لها . فجاءها جدها من وراء الباب المقفل واطعمها الحلواء خفية فقالت له تبت وما عدت ادخل اصبعي في انفي ولا ادع الهرة تخمشني فذهب يتشفع لها عند مربيتها . فاعترض عليه اهل الدار وقالوا له اطمعتها كثيراً وافسدت تربيتها . وكيف ينتظم امر البيت ان لم يكن فيه وازع ورادع وقانون يتبع . فاقر بخطئه واعترف بان كثرة المرحمة مضرة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الامة وبعث على انحطاطها وهلاكها . وقال لهم انا المخطىء ضعوني مكانها في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف . فقالوا له انت مستحق لذلك لان القانون ينبغي ان ينفذ على الكبير والصغير . فنظرت اليه حنه بعين الشفقة والمرحمة وقالت له بصوت منخفض (وانا اجيب لك الحلواء) . فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة والفاظ عذبة وهي مثال لمواضيع قصائده . فكان كالصغير مع الصغار ولذا انتقد عليه بعض الادباء وقالوا بان في اشعاره ماهو اشبه ببابأة الاطفال لا لذة فيه ولا طعم له

ثم نظم اربعة دواوين صغيرة لخص فيها مسلكه الفلسفي وجميع معارفه العلمية وافكاره الدينية والهاماته الربانية وسماها (الاديان والدين) . (البابا) . (الحمار) . (الرحمة العالية) ونظم فيها شيئاً كثيراً مما نقرأه في لزوميات المعري على حد قوله :

دين وكفرٌ وانباء نقص وفر قان ينصّ وتوراة وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

وقوله

جاء القرآن وامر الله ارسله وكان سترٌ على الاديان فانخرقا
ما ابرم الملك الا عاد منتقضاً ولا تألف الا شتّ وافترقا
مذاهب جعلوها من معايشهم من يعمل الفكر فيها تعطه الارقا
. . . . . .

ولكن كلام فيكتور هوكو اوضح واظهر واجمع واكثر تفصيلاً وترتيباً وان كان الشاعران يتفقان كثيراً في اصل الفكرة وتتوارد خواطرهما على المعاني الواحدة • ويظهر في كلامهما اثر الحيرة والدهشة من النظر في الكون ولكن فيكتور هوكو لم يستول عليه اليأس ولا القنوط الذي استولى على افكار المعري واحرمه من نعيم الدنيا ولذائذ الحياة مع ماكان له من سعة الرزق وكثرة المال • ومما انشده في ذلك :

واتهامي بالمال كلف ان يطلب مني ما يقتضي التمويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتم لغيري التخويل
عيشة ضاهت الهواذير ما فيها مُفيد وكلها تطويل
ان حباك القدير كالنيل تبرا فليفضهُ العطاءُ والتنويل
الى ان قال واذا هولت عليَّ المنايا راقني من وعيدها التهويل
حولني عن ظاهر الارض فالقلب يسلي همومه التحويل الخ

ووردت ترجمتهُ في بعض الكتب الفارسية وقيل فيها بانه كان من أهل الثروة واليسار مع زهد وتقشف

١٣ — الاديان والدين

ديوان مشحون بالحكم ولكن ضيق الوقت منعنا عن تدقيقه ومقابلته بما ورد على مثاله من شعر العرب • وهو على خمسة ابواب : باب الجدل ، باب الفلسفة ، باب لا شيء ، باب الاصوات ، باب النتيجة ، ونظم في باب المجادلات تسع منظومات : (١) يوم الاحد (٢) اول التفكر (٣) التيولوجي ونسميه المتكلم او المتكلمون وهم الباحثون في علم الكلام والتوحيد • (٤) للتيولوجي اي خطاباً لهم ومطلعها :

ايها الرهبان ، ايها اللابسون الحرام والطيلسان ، سوءٌ عليكم اتممتم بعمائم البزّ او

تتوجتم بالتيجان المرصعة بالجواهر واللآلىء فحيث جعل لكم في هذه الدنيا حق بالحماقة فانتم تتجاوزون فيها الحد بشدة لا مثيل لها • لان العلي الاعلى يغض بصره ويصم اذنه عنكم •••• الخ • (٥) الاختراع • (٦) الايدي المرفوعة نحو السماء • (٧) احسن الصنع وبين فيها ما يقوله المتكلمون من النصارى في حق الله • (٨) بقية • (٩) مسائل

ثم ذكر في الباب الثاني آراء الفلاسفة وفي الباب الثالث آراء الملحدين الجاحدين الذين يقولون بعدم وجود شيء • ان هي الا ارحام تدفع وارض تبلع وما يهلكنا الا الدهر • وانما مثلنا كمثل الزجاجة اذا انكسرت لا يعاد لها سبك • وأما الخاتمة فهي منظومة طويلة نظر بها في حسن السماء ونجومها التي هي زينتها وفي الشمس والقمر ونورهما وفي الكون باجمعه وقال في ختامها : هو موجود ! هو موجود ! انظري ايتها النفس • فله اوج وهو الضمير • وله محور وهو العدالة • وله نقطة اعتدال وهي المساواة • وله فجر واسع وهو الحرية • وشعاعه ينير فينا ما تتصوره النفس فهو موجود ! موجود ! موجود ! بلا نهاية ، بلا بداية ، بلا كسوف ، بلا ليل ، بلا فراغ من العمل ، بلا نوم

فارجع يا دودة الارض عن خلق الشمس • اه وهذا على حد قولنا لا تتفكر في ذات الله وحقيقته بل تفكر في خلقه ومصنوعاته

١٤ — الحمار

أراد المؤلف بنظم هذا الديوان بيان افضلية الطبيعة والسوق الطبيعي على العلم لا سيما على العلم الكاذب والاباطيل • وقايس فيه بين صبر الحمار وصلاحه وبين خشونة الرجل وعبث الصبي • لان الحمار وان كان في عرفنا كناية عن البلادة والغباوة ومن اوصاف الذم ولكنه في عرف المتقدمين رمز عن الصبر ولذا سمي مروان الحمار وكان ذا شجاعة وحزم • وسمى اليونان بعض رجالهم واظنه اشيل بالحمار أيضاً • ففيكتور هوكو سمى حماره الصبر وقايس بينه وبين الفيلسوف كانت وجعل بينهما مخاطبات فلسفية بديعة وقال لكانت ما الذي وجدته بعد خوض بحار العلوم وما الذي استنتجته من سبر غورها والى اين اوصلتك هذه الكتب والدفاتر فهي لم تدون ولا وضعت في الكتبيات الا لترعى في حواشيها الأرضة وتتخزن فيها الرطوبة فالعلم الحقيقي هو في وجه الطبيعة والطفولية وفي الابتسام والصلاح والبشاشة ••• الخ

١٥ — الرحمة العالية

صور في هذا الديوان الظلم والاستبداد وبكاء المظلومين ولعنهم الظالمين وشخص

القوة المستبدة أحسن تشخيص وبين الحامل للمستبدّ في أمرهم على الشكوى • ولكن المفكر في باطن الامر ونفس الحقيقة يرى اولئك الظالمين الملعونين في حاجة وافتقار للشفقة عليهم ايضاً • لان حملَ الحكومة والدولة من أثقل الاحمال • سيما وان اولي الامر وأصحاب الاستبداد محاطين دائماً بالمداهنين والمتملقين • فالظالم شنيع ولكن المغري له والمتبصبص أشنع فالمتملقون يفسدون اخلاق الملوك منذ حداثة سنهم وهم يكررون عليهم في كل صباح ومساء (كل هذه الامة هي لك) • فحب الملك خصلته كبقية الخصال الانسانية والملوك يستوون في الخصال مع بقية الناس ولكنهم يفرقون عنهم بان الحقيقة تخفى عليهم بالكلية ولا يطلعون على حلي الخبر فهم أحق وأولى بالرحمة العالية

الدرام

استعملنا هذا الاسم لبينما يضع أدباء العرب اسماً مقابلاً له أو يعربوه كما عرب المتقدمون كلمة موسيقى او ارتماطيقى ونحوهما من الكلمات اليونانية • والمقتضى لهم ايجاد كلمة تكون على وزن من أوزان الاسماء العربية ويسهل النطق بها على اللسان لانا في عصر نحتاج فيه لادخال كلمات جديدة في لغة العرب كما ادخل السلف فيها الكلمات اليونانية والفارسية وغيرهما على عهد الخلفاء العباسيين

١ — كرومويل

أول درام الفه فيكتور هوكو هو درام كرومويل وتقدم ذكر مقدمة هذه الرواية في تعريف الطريقة الرومانية • أما كرومويل فهو من أشهر رجال الانكليز في القرن السابع عشر للميلاد اشتغل بالسياسة حتى صار رئيساً للحزب الجمهوري وأحدث (الثورة) الانقلاب الذي قُتل فيه شارل الاول ملك الانكليز سنة ١٦٤٩ كما قتل لويس السادس عشر ملك فرانسا سنة ١٧٩٣ م واستبد أوليفيه كرومويل بالجمهورية وصار صاحب الامر والنهي كانه ملك • ولم يقنع بما استحوذ عليه من السلطة والنفوذ بل وسوس له الخناس الذي يوسوس في صدور الناس بان يتملك على الانكليز • فاخذ في تهيئة الاسباب واعداد المعدات كما فعل نابوليون الثالث حينما تتوج بتاج الامبراطورية واستعدت بلدية لوندره لتقديم الصولجان له وتهيأ البرلمان لالباسه التاج وكاد الاحتفال برسم التتويج يتم في كنيسة وستمنستر حسب الاصول والتقاليد القديمة ولم يبق بينه وبين الفوز بامانيه الاقاب قوسين أو أدنى • فحينئذ اكتشف على عصبة سرية من اصحاب الجمهورية يأتمرون على قتله ولا

يؤخرهم عن الفتك به الا انتظار رسم التتويج ليغمدوا سيفهم المسلول في قلب ملكٍ لا في قلب رئيس للجمهورية • فخاف ورجع عما تشتهيه نفسه وأظهر ميله للمحافظة على قوانين الجمهورية وكراهته في لبس التاج والتملك وأخفى شوقه لعروس المملكة وحرصه الزائد على نيل وصالها لان الظلم من شيم النفوس

وكان أوليفيه كرومويل ذا اخلاق غريبة وطينة عجيبة وطبيعة متقلبة اجتمع في خصاله الضدان من شهامة ودناءة وجبن وشجاعة وشدة ورحمة ولين جانب وقساوة وحرية افكار ونفاق ومجاملة ولذا اتخذه فيكتور هوكو بطلاً لروايته وصور اخلاقه تصويراً بديعاً وجعل مجرى الرواية في ويت هال سنة ١٦٥٧ وافتتح الرواية بقوله : (غدا الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستماية وسبع وخمسين) وختمها بقول كرومويل (اذاً متى أصير ملكاً ؟)اشارة الى شدة حرصه على الملك • فالادباء الناهجون منهج الطريقة الرومانية يعتبرون هذا المطلع وهذه الخاتمة من ابدع المطالع والخواتم وابلغها مع بساطتها وخلوها عن التشابيه والاستعارات المدرسية • ويقولون بان انشاء الرواية من أعلى طبقات الانشاء ولكن تمثيلها على المراسح متعسر لطولها وكثرة اشخاصها فهي اشبه بكتاب تاريخي مدقق منها بالرواية التمثيلية • وعدا هذا فمؤلفها لم يحسن توصيف اخلاق الرجال ولم يستطع اعطاء كل رجل صفته الحقيقية بدون افراط ولا تفريط بل اتبع في الوصف تصوراته وخيالاته • والمطلوب في الرواية التمثيلية تصوير الرجل بذاته وافكاره بلا غلوٍّ ولا اطراء ولا مبالغة ولكل رجل تاريخي احوال مخصوصة تكتنف به ينبغي مراعاتها في تأليف الرواية فنابوليون مثلاً له تعبيرات وافكار وأطوار لو خرج عنها مؤلف الرواية لافسد تأليفه وكذا الملك صلاح الدين الايوبي مثلاً • ولكننا لم نزل نجهل حقيقة تاريخنا فضلاً عن معرفة اخلاق كل رجل وأطواره • أما الافرنج فلكثرة معلوماتهم وسعة اطلاعهم لو حضر أحدهم تمثيل رواية وكان من اصحاب الذوق في الكلام لا يكتفي بالتبصر في محاسن الالفاظ وتنسيق الكلام ورونق الاشعار وعلو الانشاء بل ينظر مع ذلك الى الاهم وهو حسن الموضوع وتصوير اخلاق الرجال واستنتاج النتائج الادبية الفلسفية الاخلاقية • بخلاف من يتلو منا مقامات الحريري والهمذاني أو يستمع تلحين الاشعار وأنشادها على العود والقانون فان طربه في الغالب انما هو لحلاوة التعبير ويلهو بها عما يحتويه من الفكرة والمعاني فحلاوة التعبير هي كالديباج والحلي للافكار والمعاني • وربما يلهو المرء بحلي الغانية وزينتها عن جمالها الحقيقي

كما نشاهد ذلك على المراسح في المشخصات المتوسطات في الحسن اذا برزن بزينة الاميرات وباثواب الملكات

٢ — ايرناني

وسماها المؤلف أيضاً الشرف القشتالي وقشتالة ايالة في وسط اسبانيا . وصور فيها الدولة الاسبانية وهي في ذرى مجدها وأوج عزها

وذلك ان العرب بعد فتحهم اسبانيا وتاسيسهم الدولة الاموية فيها فرَّ بقية امراء القوط الى جبال استوريا في الشمال الغربي من اسبانيا واسسوا فيها دولاً صغيرة . فلم يعبأ بهم المسلمون وحسبوهم من المتشردين فلم يستاصلوا جرثومتهم ولا اجلوهم الى ما وراء جبال البيرينه كما كانت تقتضيه الحكمة السياسية من تحكيم الثغور في هذه الجبال واتخاذها سدًّا مانعاً لهجوم الاعداء على المملكة الاسلامية . ثم ظهرت ملوك الطوائف من المرابطين والموحدين وبني زيان وبني هود وآخرهم بنو الاحمر . ومؤسس هذه الدولة عبد الله محمد ابن احمر سنة ٦٣٣ هـ وعدة ملوكها عشرون واستمر ملكهم ٢٦٥ سنة وكان آخرهم ابا عبدالله الصغير وكانت عاصمتهم غرناطة[1]

فلما ضعف امر المسلمين وكثر النزاع والجدال بين امرائهم قويت شوكة المسيحيين في شمال اسبانيا . وكان يوان الثاني حاكماً على اراغون وهي ايالة في شمال اسبانيا على ساحل البحر المتوسط وعلى صقلية فزوج ابنه فرديناند بابنة حاكم قشتاله وهي ايزبلا . وتلقب فرديناند بالكاثوليكي وخلف اباه في الملك واستولى على قشتاله بالوصاية عن زوجته وحارب المسلمين واخذ منهم غرناطة واخرجهم من اسبانيا واخذ من الفرنساويين مملكة نابولي في ايطاليا وفي ايامه اكتشفت اميركا وحمل ما فيها من الذهب الى اوروبا . وبعد وفاة ايزابلا انتقل

---

(١) الخلافة الاموية في الاندلس من سنة ١٣٩ — ٤٢٣ = ٢٨٤ سنة هجرية
ملوك الطوائف » ٤٢٣ — ٤٧٩ = ٥٦ »
دولة المرابطين (يوسف بن ناشفين) » ٤٧٩ — ٥٤٠ = ٦١ »
دولة الموحدين » ٥٤١ — ٦٦٨ = ١٢٧ »
ملوك الطوائف : » ٦٦٨ — ٨٩٨ = ٢٣٠ »

فرديناند وايزابلا ١٤٧٩ ميلادية
آل اوستريا (شارلكن) ١٥١٩ »
آل بوربون ١٧٠٠ »

ملك قشتالة بالارث الى بنتها حنه المجنونة وكانت متزوجة بفيليب الجميل ارشيدوق اوستريا وخلفت منه ولداً اسمه الدون قارلو فانتقل اليه بالارث ملك جده فرديناند وجدته ايزابلا واجتمعت له المملكة الاسبانية بما فيها من الثروة الاميركية • ثم ورث من جده الثاني امبراطورية المانيا وصار انتخابه لها وتلقب بشارلكين وحاز على جميع الممالك المذكورة في الجدول الآتي

جدول في بيان ما ورثه شارلكين اي شارل الخامس من الممالك

(١) آل اسبانيا		(٢) آل اوستريا	
فرديناند الكاثوليكي ملك اراغون ونابولي	تزوج ايزبلادي قشتاله ملكة اسبانياوالمستعمرات الاسبانية في اميركا	مكسمليان امبراطورالمانيا وارشيدوق اوستريا	تزوج ماري دي بورغونيا الوارثة من شارل الجسور (هولانده وارتوا وفرانش كونته)

حنه المجنونه — تزوجت — فيليب الجميل

الدون قارلو وهو شارل دوتريش الذي لقب فيما بعد شارلكين

أما أوستريا فكانت احدى الامارات التي تتألف منها امبراطورية المانيا

أما أمبراطورية المانيا فكانت مجموع امارات ومدائن حرة • وكانت الامبراطورية فيها بالانتخاب لابالوراثة • وذلك انه عند موت الامبراطور يجتمع امراء الامارات السبعة وهم اكبر الامراء الذين تتألف منهم الامبراطورية ولذا لقبوهم (المنتخبين السبعة) وانتخبوا أمبراطوراً من أوستريا في الغالب اي من العائلة التي تملك على امارة اوستريا • فلما مات مكسمليان امبراطور المانيا سنة ١٥١٩ م انتخب حفيده شارلكين • وكان فرانسوا الاول ملك فرانسا صاحب عظمة وثروة ونفوذ وعسكر فكان يسعى مع المنتخبين في انتخاب نفسه ورشاهم بكثير من الاموال والهدايا فاخذوا ماله وانتخبوا عدوه شارلكين فاشتدت الرقابة والعداوة بينهما • وكاد شارلكين يتفرد بالملك في اوروبا ولم يبق له رقيب فيها سوى فرانسوا الاول ملك فرانسا فحاربه وأسره واحضره الى

مدريد عاصمة ملكه وعقد معه معاهدة موافقة لسياسته ثم اطلق سراحه فلما وصل أرض فرانسا نقض العهد واستمد السلطان سليمان القانوني وكان اقوى ملوك الارض قاطبة • وجرت محاربة بحرية في مياه تونس بين أسطول شارلكين واسطول خيرالدين باشا المشهور باسم بارباروس اي ذي اللحية الشقراء وانتصر فيها العثمانيون وانتصرت العساكر الانكشارية أيضاً على العساكر الالمانية في محاربة اخرى برية وقعت على حدود النامسا والمانيا • وكان شارلكين شديد الحرص على التفرد بالملك والسؤدد فلما لم يستطع ادخال جميع اوروبا في حكمه وتحت نفوذه استولى عليه اليأس وانقطعت آماله فتنازل عن ملك اسبانيا لابنه فيليب الثاني وتفرغ عن امبراطورية المانيا لاخيه فرديناند واعتكف هو في دير من الاديرة الى ان مات حزناً وكمداً

أما موضوع رواية ايرناني فهو ان الدون قارلو قبل ان يصير أمبراطوراً على المانيا ويتسمى شالكين كان يهوى في مادريد غانية اسمها الدونة سوله وكان يهواها ايضاً عمه الدوق روى غوميز أما هي فكانت تعشق شاباً من الاشقياء وقطاع الطريق اسمه ايرناني وكان ثلاثتهم يترددون عليها بدون ان يشعر احدهم بالآخر • فصادف الدون قارلو عند معشوقته هذا الشاب مرتين ففي المرة الاولى مكنه من الخروج ولم يتعرض له وفي المرة الثانية ضيق عليه بالحرس وحصره بالعسكر واباح لهم دمه وجعل جائزة لمن يأتيه برأسه ففر ايرناني بكل مشقة من بيت حبيبته واختفى عن الابصار • فلما انقطع امل هذه الغانية من الملك ومن حبيبها الشاب القت نفسها بين ايدي عاشقها الثالث وكان شيخاً هرماً ففرح بها وحملها الى قصره وأراد الدخول بها • ثم اهتدى ايرناني الى حبيبته وجاء اليها وبينما هو يغازلها ويعانقها واذ دخل صاحب البيت وهو الدوق روى غوميز ووجدهما متعانقين ثم جاءهم الملك بغتة وأراد القبض على ايرناني فامتنع الدوق من تسليمه وعدّ اخذه من بيته اهانة لشرفه واشار الى صور أبائه واجداده المعلقة على جدران الغرفة وهم حماة الملهوفين ومغيثو المستجيرين • فترك الملك ايرناني وأخذ الغانية عوضاً عنه وخرج بها من القصر • فلما نجا ايرناني من الهلاك طلب من الدوق ان يطلق سراحه ليتعقب اثر محبوبته ويخلصها من ايدي الملك وعاهده على ان يعود اليه متى طلبه واعطاه بوقاً لينفخ فيه متى أراد ان يستدعيه فاذا سمع صوت البوق حضر اليه بالحال

ثم ينتقل مجلس التشخيص الى اكس لاشابل في المانيا وكانت عاصمة الامبراطور شارلمان وفيها قبره ثم جرت العادة بتتويج الامبراطور في هذه المدينة • فاذا أرادوا تولية

أمبراطور اجتمع المنتخبون وهم الملوك او الامراء السبعة الذين لهم حق الانتخاب واختاروا أحدهم والبسوه التاج واطاعوه • وكان الدون قارلو مرشحاً لهذا الامر • فأئتمرت عصبة على قتله وفيهم عمه الدوق روى غوميز واختفوا في المحل الذي فيه قبر شارلمان وأخذوا معهم ايرناني ليطعنه بخنجره • فعلم بهم الدون قارلوس ودخل المقبرة ونزل لقبر شارلمان وفاه بكلام هو من ملول الكلام ومن ابلغ ما نظمه فيكتور هوكو • ثم أطلقت المدافع ودقت الاجراس اعلاناً بانتخابه امبراطوراً على المانيا وخليفة لشارلمان والقى القبض على المتآمرين وأراد قتل ايرناني لانه ليس من ذوي الرتب والشرف ولكنه بين نسبه وظهر بان اسمه الحقيقي هو جان داراغون دوق سينورب وقاردونيا فعفى عنه وزوجه بمعشوقته الدونة سوله فلما أخذها وأراد الخلوة بها في قصره سمع صوت البوق فتذكر عهده وفضل الموت على عدم الوفاء بالوعد فشرب السم وشربت حبيبته ثم قتل الدوق روى غوميز نفسه ايضاً من شدة حبه لتلك الفانية • فهذه الرواية ليس لها حقيقة تاريخية وانما هي من مختلقات الشاعر وتخيلاته ولكنها في اعلى طبقة من البلاغة والانسجام وحسن الذوق

٣ — روى بلاس

صور المؤلف في هذه الرواية التاريخية انحطاط دولة اسبانيا في اواخر القرن السابع عشر للميلاد وذلك انه بعد فيليب الثاني ابن شارلكين المتقدم ذكره جلس على كرسي المملكة الاسبانية ابنه فيليب الثالث ثم فيليب الرابع ثم شارل الثاني آخر ملوك هذه السلالة النامساوية • ولما جلس سنة ١٦٦٥ م كان عمره اربع سنوات وهو لا يستطيع المشي ولا الكلام فكانت الوصاية لامه ثم لاخيه وامرأته ووزراء دولته • وبعد ان كبر ايضاً لم يلتفت لمصالح الملك واهمل ادارة مملكته وبيته وزوجته وكان يقضي ايامه في الصيد والتجول في البراري والغابات وامرأته في هم وكدر من وحدتها وتكلفها بمراسم التشريفات وبالتقاليد المرعية في قصر الملك ولم يكن لشارل الثاني ولد فاوصى بالملك لحفيد لويس الرابع عشر ملك فرانسا وانتقلت دولة اسبانيا من آل اوستريا الى آل بوربون سنة ١٧٠٠ وزال نفوذها واعتبارها من بين الدول الاوروبية ولم تزل في انحطاط لم تتخلص منه للآن وترى بعين الحسد تهافت الدول الاوروبية على استعمار افريقيا ومدهم فيها السكك الحديدية وجرهم المنافع التجارية وهي شاخصة ببصرها كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه • واضاعت بالامس آخر مستعمراتها في اميركا وهي جزيرة كوبه ثم جزائر

فيلبين ولم تكسب اليوم من تقسيم البلاد المراكشية الا جزاءً موهوماً على ساحل المحيط الغربي يسمى (ريو دورو) اي نهر الذهب ويشاهد رسمه على الخريطة المرسومة بعد عقد المعاهدة بينها وبين فرانسا ولا يرى أثر لحقيقة مسماه وجل ما يعلم عنه ان ليس هناك لا نهر ولا ذهب

فصور الشاعر في هذه الرواية انحطاط المملكة الاسبانية وشرح اسباب انقراض دولتها فاذا رفع الستار عن المرسح ظهرت غرفة من غرف قصر الملك في مادريد وفيها وزير المملكة وقد غضبت عليه الملكة وطردته من القصر لانه لم يقبل بان يتزوج بنتاً من حاشيتها بعد ان راودها وحظي بها وقبل ان يخرج من القصر ليلتزم بيته صمم على الانتقام من الملكة فاستدعى ابن عم له يسمى قيصر وكان لفقره معاشراً للهمل وقطاع الطريق مع ما له من الحسب والنسب وأراد ان يتخذه آلة لدسائسه • فاستنكف من ذلك وردّ ما عرضه عليه من المال والجاه فامر بنفيه للهند ففي اليها والبس خادمه روى بلاس لباس الاشراف ودعاه بابن عمه قيصر وقدمه لرجال الدولة واعيانها بعد ان اسكنه اوراقاً يعترف فيها باصله وخدمته له وكان روى بلاس يعشق الملكة فتقرب منها وحظي لديها بالقبول وصار من أعظم وزرائها واكبر مستشاريها وبينما هو حائز على رضاء الملكة وعلى أعظم مسند في المملكة واذ ظهر له سيده وأخذ يتهدد الملكة ويوبخها على هيامها في خادمه وعلى تفريطها بنفسها وطلب منها امضاء ورقة ليتخذها حجة عليها ولا يبيح بسرها ما دامت مسلمة له زمام الملك فكادت الملكة تقبل بذلك خوف الفضيحة والعار ولكن روى بلاس اشتد غضبه حرصاً على شرف الملكة محبوبته وقتل سيده ثم شرب سماً ومات والملكة تندب عليه وتبكي • فهذا محصل الرواية

وقال فيكتور هوكو في مقدمتها :

جمهور المتفرجين في المراسح على ثلاثة اصناف : احدهما النساء • والثاني الخواص • والثالث العوام • فالذي يتطلبه العوام من التاليف الدراماتيقي بدون استثناء تقريباً هو العمل[1] • والذي تتطلبه النساء قبل كل شيء هو الشهوة • والذي يتطلبه الخواص على الخصوص هو الاخلاق • فاذا امعنا النظر في هذه الاصناف الثلاثة من المتفرجين نجد العوام هائمين بالعمل لدرجة يتساهلون فيها عند اللزوم بالاخلاق وبالشهوات • ونجد النساء

(١) اي الفعل الذي يجري على المرسح من ضرب وقتل وقيام وقعود وحركة وسكون

مكترثات بالعمل ايضاً ولكنهن مستغرقات بتفاصيل الشهوة حتى يقلّ اشتغالهن جدًّا بتصوير الاخلاق . ونجد الخواص يتلذذون بمشاهدة الاخلاق اي بمشاهدة الرجال احياءً على المراسح و يتلقون الشهوة كأنها عارض طبيعي في التأليف الدراماتيقي ويحصل لهم انزعاج من العمل . والسبب في ذلك ان العوام انما يتطلبون في حضورهم المراسح الهيجان . والنساء يتطلبن الخلجان . والخواص يتطلبون التفكر . والجميع يبغي لذة ولكن اولئك يبغون لذة النظر . وهؤلاء يُردن لذة القلب . والآخرون يبغون لذة العقل . ومن ثمّ حصل في رواياتنا — اي روايات فيكتور هوكو — ثلاثة انواع مختلفة من التأليف . احدها عامي سافل . والآخران رفيعان عاليان . ولكن في ثلاثتهم الكفاية لسد الاحتياج . فالعوام لهم الميلودرام (اي ما كان فيه انتقام وقتل وازلال وفضيحة) والنساء لهم التراجيديا التي تُشرّح الشهوة . والخواص لهم الكوميديا التي تصور الاخلاق الانسانية

ربما يتداخل بعض هذه الثلاثة في بعض لان العوام ربما وجد فيهم من له شوق طبيعي لتطلب الجمال كما له ذوق في الاشياء التافهة ومن له هيام في التصورات والتخيلات البديعة كما له اقبال على الاشياء العادية المزدرى بها . وكل واحد من خواص الادباء البالغين في الادب رتبة الكمال ينبغي ان يتصف بصفة المرأة من جهة الاحساس القلبي كما ان المرأة تتصف احياناً بصفة خواص الادباء المفكرين

فاذا امعنا النظر في اصناف المتفرجين الثلاثة نراهم جميعاً محقين . فان النساء معهم حق في ابتغائهم خلجان القلب . والخواص معهم حق في ابتغائهم التعلم والاستفادة . والعوام لا لوم عليهم في طلبهم التسلي . فمن هذا الشرح ينتج قانون الدرام

فالقصد من الدرام والغاية منه هو تصوير الاخلاق . اي اختلاق رجال وتمثيلهم على المرسح بمقتضى الشروط المؤلفة من صناعة الادب ومن الطبيعة . والقاء الشهوات في هؤلاء الرجال لبيان اخلاقهم وايضاحها . ثم استخراج الحياة الانسانية من تصادم هذه الاخلاق والشهوات بالنواميس الكبرى الالهية . اي استخراج وقائع كبيرة ، صغيرة ، مؤلمة ، مضحكة ، هائلة ، تشتمل على لذة للقلب يسميها الناس المنفعة وعلى عبرة للعقل يسميها الناس محاسن الاخلاق . فيتضح من ذلك ان الدرام يخرج من التراجيديا بتصوير الشهوات ومن الكوميديا بتصوير الاخلاق والصفات . فالدرام هو الشكل الثالث الكبير من اشكال الصناعة الادبية ويشتمل على الاثنين الاولين ويجمعهما ويفصلهما . فلو لم يوجد شكسبير بين قورنيل وموليير ولم يعطِ يده اليسرى لقورنيل ويده اليمنى لموليير لبقي كل منهما بعيداً

عن الآخر . ولكن بوجوده التقت الكوميديا بالتراجيديا التقاء القطب المثبت بالقطب المنفي من الكهربائية . فحصل من التقائهما شرارة هي الدرام

ثم انتقل فيكتور هوكو لبيان حقيقة الدرام بالنظر لفلسفة التاريخ فقال :

اذا اقتربت مملكة من السقوط تمكن الناظر فيها من ملاحظة علائم كثيرة . ففي بادىء الامر تميل الاشراف للانحلال . وباضمحلالها تنقسم على الوجه الآتي :

تضطرب المملكة وتنطفي السلالة المالكة . وتزول احكام القانون . وتتجاذب الدسائس الوحدة السياسية فتمزقها شذر مذر . وتخمد كبار العائلات وتنقرض . ويشعر الجميع في الداخل والخارج بضعف مميت . وتسقط عظائم الامور التي تقوم عليها الدولة ولا تبقى واقفة الا على صغائر الامور وحدها ويصبح منظرها العمومي محزنًا . ولا يبقى فيها لا ضابطة ولا عسكر ولا مالية . وكل واحد يحسب الساعة آتية لا ريب فيها . فمن ذلك يحدث في جميع الاذهان كدر من البارح وخوف من الغد واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة . وحيث ان مرض الدولة في رأسها فاعيان المملكة الذين هم اقرب الى الرأس يكونون اول المصابين بهذا المرض . فماذا يحدث حينئذٍ ؟ لا يبقى في قصر الملك من الاعيان المقربين الا الذين هم اقل حياء واسوأ اخلاقًا وجميعهم على وشك الانقراض ويضيق الزمان وتنبغي العجلة ويلزم لهم الاستهلاك في جميع المال والارتقاء لأعلى المراتب والاستفادة من الحال الحاضرة . ولا يفتكر الواحد منهم الا بنفسه . ويجمع بلا شفقة على الوطن ثروة قليلة خاصة به في قرنة من الفقر العام الكبير . ويصير نديمًا ويصير وزيرًا ويتهالك على الوصول للسعادة وانفاذ الكلمة وينفتق ذهنه باستحضار الاجوبة الظريفة ويرافق ويداهن ويلاطف فينجح . وكلهم يستحوذون على مقامات الدولة ومناصبها وعلى وساماتها ورتبها والقابها واموالها . وياخذون الجميع . ويتطلبون الجميع . وينهبون الجميع . ولا يعيش الواحد منهم الا بالحرص والطمع . ويخفون قلاقل المملكة واغشاشاتها وسوء ادارتها الداخلية تحت مهابة ظاهرية . وتشره نفوسهم للعجب وتتطاول اعناقهم للعظمة والكبرياء . وحيث كان الشرط الاول في حياة هؤلاء المقربين هو نسيان جميع الحواس الطبيعية فيصبح الواحد منهم كانه وحش مفترس . ومتى جاء يوم سقوطه وابعاده عن مناصب الدولة صار مدهشًا عجيبًا وانقلب ابليسًا

فاذا يئست الدولة من حالتها ابعدت عن مراكزها النصف الثاني من اعيان المملكة الذين هم اكرم نسبًا واحسن جرثومة . فيلتزمون بيوتهم ويدخلون قصورهم ويذهبون

لبلادهم ومعاقلهم ومصائنهم وينفرون من مصالح الدولة ولا يستطيعون تدبير أمر ولا بيدهم حيلة لان المملكة قد حان موتها ولم يبق في الايام الا ذماء . (الدماء بقية الروح في المذبوح) كيف العمل وماذا يجدي التحسر وما ينفع البكاء ؟ فينبغي التغافل واغماض العين وتسلية النفس بالملاهي واللعب والاكل والشرب والتلذذ والتنعم . من يعلم ؟ هل بقي للواحد منهم سنة او سنتان امامه ؟ فاذا تفوه سادة المملكة وكبراؤها بذلك او شعروا به واحسوا بشيء منه فقط اقبلوا على التهور في مصالحهم والافراط في امورهم . فزادوا في مشترياتهم وفي حلي نسائهم وفي ضيافاتهم واتقان مطابخهم وموائدهم واسرفوا وبذروا واهدوا وفرقوا وباعوا واشتروا ورهنوا واستدانوا وسلموا انفسهم لآكلي الربا واتلفوا مداخيلهم واضرموا النار في الجوانب الاربعة من املاكهم . فيصبح الواحد منهم يوماً وقد حلت به المصيبة ونزل عليه البلاء وخرب هو قبل خراب المملكة رغماً عن سرعة سيرها نحو الانقراض . فينفذ ماله ويحترق كله ولا يبقى من تلك الحياة الزاهرة والطهي والبهرجة ولا الدخان لانه طار ايضاً . ولم يبق الا الرماد ولا اكثر من ذلك . فيتركه جميع الناس وينسونه الا اصحاب الديون . فتصير حالة هذا الشريف المسكين الى ما يمكن ان تصير اليه . فيصبح بائساً سفيلاً من الرعاع ويدور مع الهمل ويختلط بجمهور العامة ويغيب بين افواجهم المزدحمة . ولم يكن خالط العوام قبل ذلك ولا رآهم الا على ابوابه واعتابه . فيغطس الآن بينهم ويلتجيء اليهم . ولم يبق معه نضار وانما بقيت له (الشمس) اي نضارة الحياة وهي ثروة من لا ثروة له . وبعد ان اقام في اعلى طبقات الجمعية فهو الآن يقيم في اسفل طبقاتها . ويدرب نفسه على الذل بعد العز . ويهزأ بالذين اشتد بهم الحرص والطمع حتى نافقوا وتقربوا من اولي الامر وصاروا من الاغنياء النافذي الكلمة . واما هو فيصير فيلسوفاً لا يبالي بالاقبال والادبار ويشبه من حوله من رعاع الناس واوباشهم بحاشية القصر ورجال المعية ويتخذ منهم جماعة واخداناً ويترأس عليهم ويراعي النخوة والشهامة في جانبهم . وعدا هذا فهو طيب العنصر جسور القلب مفطور على النجابة والفطنة جمع في اخلاقه وخصاله بين ذوق الاديب الشاعر ودناءة الصعلوك الفقير وشهامة الرئيس الامير . لا يبالي بامر ويسخر من كل شيء ويشوق رفاقه واصحابه للسرقة كما كان يبعث برجاله واتباعه للنهب والغارة ولكنه لا يتنزل لان يسرق او يستعطي بنفسه . تراه رث الظاهر سليم الباطن ذا كرم وسخاء كالامير وتهور كتهور اليائس الفقير . لم يبق له من الاصالة الا شرف النسب الذي يحافظ عليه والاسم الذي يخفيه والسيف الذي يشهره

فهاتان الصورتان اللتان رسمناهما ووصفنا بهما قسم المقربين وقسم المبعدين من اشراف المملكة يوجدان في وقت من الاوقات في تاريخ جميع الممالك . ولكنهما في اواخر القرن السابع عشر للميلاد وجدتا في اسبانيا بصورة جالبة للنظر . ولذا شخصنا في هذه الرواية التمثيلية القسم الاول من كبراء اسبانيا في الدون سالوست المقرب في قصر الملك والمنعم عليه والقسم الثاني في الدون قيصر (سيزار) الذي يرعى مع الهمل مع ان كلاً منهما ابن عم للآخر . وعدا هذين الشخصين الذين يتمثل فيهما كبراء المملكة الاسبانية المقربين والمبعدين يوجد تحتهما شيء كبير مظلم مجهول يتموج في جنح الظلام . فهذا الشيء هو الشعب الذي له المستقبل وليس له الحاضر . فالشعب يتيم فقير ولكنه ذو قوة واستعداد وقابلية . يتطلب العلى وهو في الدرك الاسفل . وعلى ظهره علامة الخدمة والاستعباد وفي قلبه شوق للمعالي . الشعب خادم للسادة الكبراء . وعاشق وهو في الذل والشقاء للصورة الوحيدة التي تتلالأ له وسط هذه الجمعية المنقرضة كأنها نور الهي و يتمثل له فيها الحاكية والشفقة والنمو . فالشعب هو (روى بلاس) خادم الدون سالوست

فاذا تصورنا هؤلاء الاشخاص الثلاثة على الوجه المشروح فيقتضي احياءهم وتمشيتهم امام انظار المتفرجين وندير عليهم اعمالاً ثلاثةً تتلخص فيها جميع احوال المملكة الاسبانية في القرن السابع عشر . و يوجد فوق هؤلاء الرجال الثلاثة مخلوقة صافية نيرة . فهذه المخلوقة هي امرأة وملكة . وهي في شقاء من حيث انها امرأة لانها لم يكن لها زوج . وهي في شقاء من حيث انها ملكة لانها كان لم يكن لها ملك . ومتعطفة على من تحتها بعاطفة ملكة وقلب امرأة . وناظرة للدرك الاسفل بينما ان روى بلاس الذي تتشخص فيه الامة ناظر للمقام الاعلى . فبقطع النظر عن الاشخاص الثانوية فهذه الرؤس الاربعة المجتمعة على هذا الوجه هي في نظر المؤرخ الفيلسوف النكات الاصلية لمملكة اسبانيا قبل ١٤٠ سنة . ويمكن لنا ان نضيف راساً خامساً لهذه الرؤس الاربعة وهو راس الملك شارل الثاني . ولكن شارل الثاني ملك اسبانيا لم يكن شخصاً بل هو في نظر التاريخ ظل ولذا بقي في الدرام ظلاً لم يبن شخصه

فما ذكرناه للآن انما هو بيان لحقيقة هذه الرواية وهي روى بلاس بالنظر لفلسفة التاريخ . ويمكننا النظر اليها باعتبار آخر . لان الاشياء في هذا العالم تختلف اشكالها باختلاف النظر اليها . ومثل ذلك كمثل الجبل الابيض . ان نظرت اليه من المحل المعروف باسم (فروا دو فليشر) تراه بهيئة غير الهيئة التي تراه فيها لو نظرت اليه من المحل المعروف

باسم (سالاً نش) • ومع ذلك فهو دائماً الجبل الابيض • وكذا الحال في هذا الدرام فانه يختلف شكله باختلاف النظر اليه • فلو نظرنا اليه باعتبار الانسانية المحضة لرأينا الدون سالوست يتشخص فيه حب الذات والاهتمام واشتغال الفكر والتغرض • والدون سيزار بعكسه يتشخص فيه عدم المبالاة وعدم الاهتمام وراحة البال وعدم التغرض • وروى بلاس يتشخص فيه الذكاء والعشق واقتحام الاخطار والمهالك • والملكة يتشخص فيها الفضيلة المائلة للانتهاك بسبب الملل وضيق الخناق

وأما باعتبار صناعة الادب فيجتمع في هذا التأليف الانواع الثلاثة من الروايات التمثيلية • الدون سالوست هو الدرام • والدون سيزار هو الكوميديا وروى بلاس هو التراجيديا • فالدرام يعقد العمل والكوميديا تشوشه والتراجيديا تحسمه •

فالموضوع الفلسفي لهذه الرواية هو تطلع الامة وتطلبها للمقامات العالية • والموضوع الانساني هو رجل يحب امرأة • والموضوع الدراماتيقي اي الفاجع أو الهائل هو محبة خادم لملكة • فجمهور العوام لا يرون الا الموضوع الاخير اي الدراماتيقي الذي هو الخادم • والحق معهم • وهكذا يقال في كل تأليف من هذا القبيل • فترتوف يضحك منه واحد ويرهب منه آخر • فان ترتوف حية تسعى في البيت • فهو المرائي بعينه • فيكون تارة انساناً وتارة معنى • واوتلو هو في نظر البعض اسود يحب بيضاء • وفي نظر البعض الآخر هو وضيع تزوج بشريفة وفي نظر الآخرين هو غيور او هو الغيرة على النساء

ثم ان هذه الرواية لها تعلق من جهة المعنى التاريخي برواية ايرناني • فان حالة الكبراء في الروايتين تظهر بجانب حالة المملكة • ففي ايرناني لم تكن اسبانيا اكتسبت شكل الحكومة المطلقة ولذا كان الكبراء ينازعون الملك في الامر ويقوون عليه تارة بالنفوذ وتارة بالسيوف ويخرجون عليه مرة ويطيعونه أخرى — كما كان الحال في المملكة العثمانية على عهد الجزار صاحب عكا وباشاوات مصر وبكوات تونس ودايات الجزائر وبقية الامراء الذين يقال لهم دره بك — ففي سنة ١٥١٩ م كان الكبراء في اسبانيا يبتعدون عن قصر الملك ويقيمون في الجبال وفي المعاقل والحصون • ويكونون تارة من قطاع الطريق مثل ايرناني وتارة من الامراء المستقلين في ادارتهم الداخلية مثل روى غومز كما فصلت احوالهم في تلك الرواية • ثم بعد مأتى سنة من ذاك التاريخ انقلبت القضية فصار الكبير الذي كان اشبه بالمستقل في ادارته رجلاً من رجال المعية ينافق لينفق والبعض الآخر من الكبراء سقطوا في الفقر والمذلة فهم يخفون اسماءهم لا للتملص من

سطوة الملك بل للتملص من اصحاب الديون والحاحهم • فالواحد منهم لا يصير قاطع طريق بل يصير نوريا أي من الرعاع • فيرى من ذلك ان الحكومة المطلقة ضرت عن هؤلاء الكبراء اعواماً كثيرة فاحنت رأس هذا وقطعت رأس ذاك

ثم ان بين رواية ايرناني ورواية روى بلاس مضى على اسبانيا قرنان من الدهر حكم اخلاف شارلكين في غضونهما الدنيا • وكان من الحكمة الالهية عدم زيادة ساعة ولا تنقيص ساعة في هذين القرنين • لان شارلكين ولد سنة ١٥٠٠ م وشارل الثاني مات سنة ١٧٠٠ م ففي سنة ١٧٠٠ م ورث لويس الرابع عشر شارلكين كما ورث نابوليون سنة ١٨٠٠ م لويس الرابع عشر • فالمؤلف عطف انظاره نحو التاريخ ونحو ظهور هذه الدول المعظمة فيه وملأ رواية ايرناني بضياء الفجر ورواية روى بلاس بظلام الشفق • ففي ايرناني اشرقت شمس آل اوستريا • وفي روى بلاس غربت

باريس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٣٨ م • انتهى

فيتضح من هذه المقدمة رغماً عما فيها من ركاكة الترجمة لعدم تنقيحها بسبب ضيق الوقت حقيقة الروايات التمثيلية وكيفية تشخيصها للاخلاق الانسانية وتصويرها الوقائع التاريخية كما يظهر الفرق بين انواع الروايات من درام وكوميديا وتراجيديا • فان تأليف الروايات له شروط وقواعد واساليب كما ان له غاية ومقصداً • ويتضح من ذلك ايضاً وجه اعتراض الافرنج على المقامات الحريرية التي هي اشبه بالكوميديا • ولعل ادباءنا ينهجون هذا المنهج الجديد في التأليفات الادبية ولا يقفون عند حد القصيد والرجز او الرسائل والمقامات والخطب فان القرن العشرين مفتقر الى تصوير الاخلاق الشرقية باسلوب الروايات التمثيلية ومحتاج الى درس تاريخ الامم الشرقية درساً مدققاً ومعرفة خصال كل رجل من مشاهير رجاله كصلاح الدين وموسى بن نصير وامثالهما • ونظم الكونت دوليسل وهو خليفة فيكتور هوكو والمنتخب عوضاً له في الاكاديمية قصيدة غراء سماها موسى الكبير وصور فيها محاكمة موسى بن نصير ووقوفه بين يدي الخليفة الاموي ومدافعته عما اتهم به كما ان عبد الحق حامد بك ألف باللسان العثماني رواية طارق بن زياد وهي نثرية تمثيلية وفيها اشعار بديعة

٤ — الملك يتسلى

صور فيها المؤلف فرانسوا الاول ملك فرانسا ومجنونه تريبوله • لان الملوك كان لهم مجانين ومهرجون ومضحكون واقزام قصار القامة ومساخر • ولم يزل يشاهد اثرهم

وبقيتهم في بلاد الشرق • ولعهد قريب كان للولاة في بلادنا مساخر ومضحكون يسمونهم المهرج والسوطري ولم يزل منهم من هو حيٌّ ليومنا • واما في اوروبا فاعتاضوا عن جميع ذلك بالمراسح وتفننوا في تنويعها • فجعل المؤلف فرانسوا الملك المتكبر الجبار وتريبوله المجنون المضحك الهزئة على طرفي نقيض في مرسح اللعب • ولكن تريبوله مع ما هو عليه من دناءة النفس والتلاصص كان ابا حنونا شفوقاً على اولاده • فكانت له خصلة حسنة من جهة الابوة وقد قام بحقها احسن قيام واظهر احساسه الابوي على بنته حينما أراد الملك ان يقع بها للتسلية

٥ — لوكريس بورجيا

بورجيا عائلة اسبانية الاصل انتخب منها باباوات اشهرهم البابا اسكندر السادس وصار لهذه العائلة نفوذ عظيم في رومية وايطاليا وجميع العالم الكاثوليكي • وكان للبابا اسكندر السادس اولاد منهم قيصر بورجيا المشهور بارتكاب الافعال الدنيئة والجنايات الفظيعة وكان اسقفاً وله اخت تسمى لوكريس بورجيا

فموضوع الرواية ان خمسة شبان من اولاد الكبراء اجتمعوا في البندقية (فينيسيا) في مرقص تستر فيه الراقصون والراقصات بالبراقع ثم جلس هؤلاء الاصحاب يتسامرون وافضى بهم الحديث الى ذكر الفظائع وتعداد الجنايات التي ارتكبتها عائلة بورجيا • وكان أحدهم القبطان جينارو نام على حديثهم ثم استفاق على قبلة قبلته اياها في جبهته امرأة مستترة بالبرقع لم يعرفها • فهذه المرأة هي أمه لوكريس بورجيا وسمعت قذف اولئك الشبان في حقها وحق عائلتها • ولم يكتف الشبان بالكلام بل مروا بباب دار زوجها الدوق دوفيرار ومعهم جينارو فتطاول على تاج الدوقية المرسوم على بابه وطعن في لوكريس بورجيا وفي اخيها وابيها • فامر الدوق بالقاء القبض عليه وحبسه وطلبت زوجته قتله ثم لما علمت بانه ولدها طلبت العفو عنه • فاغتاظ الدوق دوفيرار من ذلك وظنه واحداً من عشاقها واجبرها على سقيه السم • وبعد خروج زوجها من البيت سقت ولدها المسموم ترياقاً نافعاً ضد السم فشفي وفتحت له الباب وهربته وهو لا يدري بانها أمه ثم ارادت الانتقام من رفاقه الخمسة الذين طعنوا فيها في مرقص البندقية • فاحتالت في دعوتهم عند الاميرة تغروني وفي سقيهم السم القاتل وبينما هم منهمكون في اللذات على المائدة ومتنعمون بنعيم الضيافة واذا سمع النواح ودخل الرهبان باثواب المآتم وخلفهم خمس توابيت لحمل الموتى • وظهرت لوكريس بورجيا على المرسح شامتة في

اعدائها الخمسة الذين قذفوا في عرضها والسم يدور في بدنهم ولا يمهلهم الا برهة قليلة . ولكن جينارو لحق برفاقه وأراد الموت معهم وشرب من كاسهم ورفض من أمه الترياق الذي ناولته اياه لتنقذه من السم وطعنها بخنجره وهو لا يدري بانها أمه فقالت له حينئذ لوكريس بورجيا (انا أمك) وختمت الرواية بموتهم جميعاً . ومراد المؤلف من هذه الرواية بيان ان اشقى النفوس واظلمها واطغاها قد تتجمل باحساس كالاحساس الناشيء من محبة الوالدة لولدها

٦ — توركماده

وهي من روايات التمثيلية التاريخية . اما توماس توركماده فهو رئيس محاكم التفتيش الديني في اسبانيا . وقد اشتهرت هذه المحاكم بالظلم والعدوان والتعذيب بانواع آلات العذاب كالضرب الشديد وشد المعذبين بالمشدات حتى تتخلخل عظامهم ونتف شعورهم والباسهم الطاسات المحمية ووضعهم في صناديق مسمرة حتى اذا تحرك الموضوع فيها دخل المسمار في بدنه ومزق جلده ولحمه وغير ذلك من انواع العذاب والاحراق بالنار او التغريق في الانهار والبحار . وعرفت هذه المحاكم باسم (انكيزيسيون) وكان أول تأسيسها في قشتاله واراغون من اسبانيا لمحاكمة المسلمين واليهود والمشكوك في ايمانهم من النصارى الذين يتساهلون بفرائض الدين الكاثوليكي وتوفي توركماده سنة ١٤٩٨ م اي عقب اخراج المسلمين من اسبانيا .

٧ — بورغراف

وهي من الروايات التمثيلية ايضاً . وهذا الاسم يطلق على ذوي الآراء السخيفة لا سيما في المسائل السياسية . والبورغراف هم أمراء البلاد ومحافظو القلاع كما كان الجزار في عكا وابو نبوت في يافه ولم يزل له في يافه سبيل ينسب اليه . ويروى عن هؤلاء الولاة والامراء الروايات الغريبة والاقاصيص العجيبة . فصور فيكتور هوكو في رواية بورغراف اخلاق أمراء الالمان وغرائب احوالهم

٨ — ماري تيد — وهي ملكة الانكليز (١٥١٦ — ١٥٥٣ م) بنت هانري الثامن . وكانت مخالفة للاصلاحات والنظامات الجديدة شأن المستبدين من الملوك . فالف الشاعر فيها هذه الرواية

٩ — انجلو . اسم ملك ظالم من ملوك بادو في ايطاليا اتخذه الشاعر

موضوعاً لروايته

١٠ — ماريون دولورم • غانية من غواني باريس كانت على عهد لويس الثالث عشر والكردينال ريشيليو الوزير الشهير فصورها الشاعر في روايته

١١ — اسمرالده • اسم نوريه في باريس ولعلها من الاشخاص الموهومة واتخذها المؤلف عروساً لهذه الرواية التمثيلية ولقصة (نوتردام دوبارى)

١٢ — امى روبسار

فهذا ما ألفه فيكتور هوكو في الروايات التمثيلية وسماه درام • واكثر هذه الروايات منظوم ومنها ما هو نثر

نثر فيكتور هوكو

المنثور من كلام فيكتور هوكو على فنون كثيرة منها فن القصص المعبر عنها بالرومان ومنها الادب والفلسفة والانتقاد الادبي والتاريخ والرحلة والمراسلات والاقوال والاعمال والمشهودات ونحو ذلك

١ — فاشهر القصص التي ألفها هي قصة البؤساء • وذكرنا فيما سبق ان العلامة الفاضل شمس الدين سامي بك الفراشري — وفراشر قرية في ولاية يانيه من بلاد الارناؤد — ترجم جزءاً كبيراً من هذه القصة للسان العثماني وسماه السفلاء ونشره بمطبعة مهران في الاستانة • ولسامي بك تآليف كبيرة مفيدة مثل قاموس الاعلام في ست مجلدات ضخمة وقواميس صغيرة وكبيرة من التركية للفرنساوية ومن الفرنساوية للتركية وغير ذلك من المؤلفات النافعة العصرية

أما الباعث على تأليف هذا الكتاب فهو ما ذكره المؤلف في مقدمته حيث قال :

طالما وجد عذاب اجتماعي بفعل القوانين والعادات ، طالما لم تحلّ الثلاث المسائل العصرية وهي الحط من كرامة الانسان بكثرة البؤساء وسقوط المرأة في العهر بسبب الجوع وفقر دم الاولاد باشتداد برد الليل ، طالما وجد في الناس جهالة وفقر فالكتب التي هي من جنس هذا الكتاب لا تخلو من الفائدة ....

وموضوع الكتاب ان رجلاً فقيراً يدعى جان فلجان كسر قفل الخباز وسرق رغيفاً ليطعمه لاولاد أخته الجياع فحكمت عليه المحكمة وفقاً للقوانين بالاشغال الشاقة وألقى

في الحبس الذي هو جهنم الهيئة الاجتماعية ولاق من الآلام والمحن مالاقاه على زعم النصارى المسيح بن مريم عليهما السلام تخليصاً للبشر من الخطايا • فكان جان فلجان فداءً للاخلاق الانسانية • وبعد تحمله الآلام والمشاق الكثيرة صعد الى النور • وكان الاسقف ميريل وهو من اشخاص هذه القصة وعظ هذا الجاني بالصبر على المصيبة ووضع في نفسه المظلمة شعاعاً طفيفاً فاستنارت ثم توقدت وتوهجت فصور الشاعر ما احتاج في صدر هذا المحكوم عليه من الهيجان وعبر عن ذلك بحدوث زوبعة عاصفة في قرعة الرأس • ومن أشخاص هذه القصة وابطالها البنت فوزيت والبوليس جافر وبين حالة العملة والشغال الذين يلجئهم الفقر والجوع الى ارتكاب القبائح والجرائم وحالة البنات الشغالات اللواتي صيرتهن المتربه من المواهر الفاجرات وصور الفقر المدقع والجوع القتال أحسن تصوير • وفي هذه القصة أيضاً أخبار كافروش وهو من رعاع باريس وما جرى له مع البوليس جافر وقد اشتهر خبرها حتى ضرب بهما المثل • ومما ذكره المؤلف بطريق العرض في هذه القصة محاربة واترلو التي غنمها نابوليون الاول ووصفها بكلام نثري اشبه بالشعر الحماسي • وذكر أيضاً الفتنة التي حدثت في باريس سنة ١٨٣٢ أما البوليس جافر فجعله مثالاً للطاعة والقيام باعباء الوظيفة

٢ — نوتردام دوباري • وهي كنيسة باريس الجامعة سمى بها قصته لجريان حوادثها في هذه الكنيسة وفي أطرافها • وهي بنيان ضخم غليظ في وسط باريس بقرب نظارة الضبطية ونظارة العدلية أو الحقانية • وموضوع القصة عبارة عن عشق ضابط فرنساوي يدعى فوبوس لرقاصة نورية تدعى اسميرالده ورقابة راهب الكنيسة لهما وخطف أحد الاشقياء المدعو كازيمودو للبنت • فالموضوع بسيط عادي ومهارة المؤلف تظهر في تصوير الحالة التي كانت عليها باريس في القرون الوسطى ووصف ما فيها من الازقة المظلمة والطرق الغير المستقيمة ووصف أهلها ما بين بائع وتاجر وصانع وتلميذ وجندي وشريف ووضيع وهم يمرون أمام الكنيسة أفواجاً أفواجاً ويروحون ويغدون في فنائها ويستظلون بظلها وصور جميع ذلك بصورة خيالية وهمية لطيفة تعجب القارئين وهي مؤلفة على أسلوب اللغة الرومانية

٣ — هان الاسلاندي • وهي قصة مصورة للجمال الذي قد يكون في الشنيع • كما صور محبة الوالدة لولدها وتهافتها على انقاذه من مخالب الموت في رواية لوكريس بورجيا رغماً عن قساوة اخلاقها وسوء افعالها • وكما صور هذا المؤلف ايضاً في رواية الملك تسلي

اشفاق الوالد على بنته وغيرته على ناموسها وسعيه في تخليصها من ايدي الملك مع ان هذا الوالد لا يغار على ناموس نفسه ولا على شرفها ولا يبالي في ارتكاب انواع الدناءة والمجون . ومن بديع الحكم التي في قصة هان الاسلاندي ماذكره في مقدمتها عن (نُضج القريحة) قال :

في كل مُصنَّف فكري مثل الدرام والشعر والرومان ثلاثة اشياء : ماشعر به المؤلف ، ومانظر فيه المؤلف ، وما تنبأ به المؤلف . فليكونَ الرومان (القصة) حسناً ينبغي ان يكون فيه كثيرٌ مما شُعِر به وكثيرٌ مما نظر فيه . واما الشيء المتنبا به فيلزم ان يظهر من تمام الشيء الذي شعر به والشيء الذي نُظر فيه بغير احتياج للحلّ وانما بالطبع والبداهة

فاذا انقضى الفصل الاول من العمر وانحنت الجبهة على الكتاب والكتابة وشعر المرء باحتياجه لعمل شيء آخر خلاف الحكايات الغريبة التي يخوف بها النساء العجائز والاولاد الصغار واحتك بالحياة احتكاكاً اخلق دِباج شبابه ، يعلم حينئذٍ ان كل ايجاد وكل اختلاق وكل تنبُّوء في هذه الصناعة ينبغي ان يكون اساسه مبنيًّا على الدرس والنظر والتفكر والعلم والقياس والمقابلة والتعقُّل الصحيح وكمال الدقة في تصوير الاشياء بحسب الطبيعة ونقدها نقداً خالياً من الغرض والهوى . فالالمام الحاصل من مراعاة هذه الشروط الجديدة لايضيع شيئًا من هذه الصناعة الادبية وانما يُكسب صاحبها نفساً عاليًا وجناحاً قويًّا ويُعرِّف الشاعر بالطريق التي يسلكها حينئذ . وجميع التخيلات الهوائية التي تخيلها في سني حياته الاولى تجمد على هيئة مخصوصة كما يجمد الجليد وبتشكل منها فكرة وراي . فهذا الدور الثاني من حياة المصنف المتفنن هو الزمن الذي يؤلف فيه احسن مصنفاته ويكون فيه شاباً نضيج الراي . فهذه هي الصحيفة الثمينة والنقطة العليا التي هي الاوج والساعة التي يشتد فيها الحر والضياء من وسط النهار واللحظة التي يقلّ فيها الظل الى اقل مايمكن ويكثر فيها النور الى اكثر مايمكن ..... اه

٤ — بوغ جارغال . حرر فيكتور هوكو هذه القصة وهو في السادسة عشرة من عمره وطبعها ثم صححها واعاد طبعها . وموضوعها انه في سنة ١٧٩١ اي في اثناء الانقلاب الكبير الفرنساوي كان في جزيرة سن دومينيك من جزر الانتيل الاميركانية عبد اسود يسمى بيبرو يخدم عند اوربي من اغنياء المستعمرين فاحب ابنته ماربة حبًّا شديداً وكانت بديعة الحسن والجمال ولها خطيب فاخفى العبد حبها ولم يبح لها بشيء ولكنها كانت تلاحظ حنوه واشفاقه عليها وخطيبها كان يرى ذلك ويعجب من جراته على محبة خطيبته . ثم

حصلت ثورة العبيد السودان على المستعمرين من البيضان وفي اثناء معامع الثورة خطف احد السودانيين مارية وذهب بها الى مكان بعيد فخرج خطيبها يفتش عنها فقبض عليه الثائرون وارادوا قتله واحضروه بين يدي بيرو وكان انتخب بوغ جارغال اي رئيساً للثائرين فحماه من شرهم وجمع بينه وبين خطيبته مارية . ثم ان بوغ جارغال ضحى نفسه لسلامة معشوقته وخطيبها ولتخليصهما من ايدي العبيد الثائرين وسلم نفسه لاعدائه البيضان ليقتلوه واداه حبه الى فداء روحه في سبيل محبوبته . ومن هذه القصة يظهر اقتدار المؤلف في تصوير الوقائع مع حداثة سنه

٥ — آخر ايام المحكوم عليه بالقتل . الف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٢٩ وصور فيها المحكوم عليه بالاعدام وهو في سجنه ينتظر حلول الساعة التي ينقضي فيها اجله وتزهق روحه . وعبر باسلوب بديع عن بكائه واضطرابه وانزعاجه وبين جميع ذلك باساليب شعرية لا وصفية فقط . فكان المؤلف كأنه يشاهد جميع حركات هذا المسكين وارتجافه واختلاج عضلاته اختلاجاً طبيعياً لكسر سلاسل الحديد التي برجليه والحبل المربوط بيديه وكأنه يفهم مايقوم في ذهنه ويخطر في باله من الافكار المرعبة والتصورات الهائلة المدهشة فخرج جميع ذلك بكيفية مؤثرة محزنة يكاد القارىء يجن من تلاوتها . ففيكتور هوكو اجهد نفسه كثيراً في ابطال الجزاء بقتل النفس وسعى في الغاء هذا الجزاء بقلمه ولسانه وخطب في هذا الموضوع خطباً كثيرة في مجلس النواب وفي النوادي والمجتمعات ولكنه لم يتوفق لرفع جزاء القتل من القانون الفرنساوي

٦ — المشتغلون بالبحر . ومقدمتها تبحث عن ارخبيل بحر المانش الفاصل بين فرانسا وانكلتره . فصور المؤلف في هذه القصة ما يكابده الملاحون والنوتية من العذاب الاليم وما يقاسونه من الاهوال والشدائد عند تخالف الهواء وحصول الانواء وتلاطم الامواج وانكسار السفن واشراف من فيها على الهلاك ووقوعهم فريسة لحيوانات البحر ومنها الحيتان الكبيرة ومنها ما يلتف على الانسان كما يلتف الحبل ويشد وثاقه شداً محكماً حتى لا يستطيع حراكاً ثم يعض بدنه كالعلقة ويمتص جميع دمه ويسمى هذا الحيوان البحري (Pieuvre) هبراو (ربيله) . ومن البلاء الذي يقع فيه الفلاحون وصيادو السمك أيضاً رمال المستنقعات التي على سواحل البحار يحسبها الواحد منهم أرضاً يابسة فاذا وطئها غاصت رجلاه في الرمال وكلما تحرك حركة للتخلص منها زاد غطساً فيها الى رأسه ويستمر في هذا العذاب الاليم وهو يشاهد الموت بعينه ولا سبيل للنجاة حتى

يغرق ويموت خنقاً • فوصف الشاعر مجاهدة المشتغلين بالبحر من افراد الانسان والمعترك الذي يحصل بينهم وبين الطبيعة أتم وصف مما يذكرنا بقصة السندباد البحري وما لاقاه في اسفاره

٧ — الانسان الضاحك • ألف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٦٩ وجعل حوادثها تجري في انكلتره على عهد ملكتها حنه (آن) المعاصرة للويس الرابع عشر في أوائل القرن الثامن عشر للميلاد • وموضوع القصة ان أحد مرقصي الدب كان يتجول في جنوب انكلتره ومعه دب سماه هومو ومركبة يسكن فيها ويجر اثقاله عليها كما يفعل مرقصو الدب ليومنا هذا في اوروبا ولم يزل منهم في جنوب فرانسا واكثرهم عثمانيون من أهل البوسنه والهرسنك يحملون الباسابورط ويحتمون بقناصل الدولة العلية • فكان هذا الرجل يرقص دبه أمام الجمهور ويضحكهم ويسليهم ويعتاش من احساناتهم وعطاياهم وكان صافي النية حسن الطوية مع كونه هزءة ومسخرة للناس • فالتقى ذات يوم بصبي مشوه الخلقة يحسبه الناظر اليه ضاحكاً على الدوام وكان هذا الصبي اختطفه سارقو الاولاد فشوهوا خلقته وتركوه وحده في البراري فالتقى ببنت حسنة الوجه ولكنها عمياء كانت خرجت مع أمها فنزل الثلج عليهم وماتت أمها من شدة البرد فاصطحب الصبي بالبنت وأحبها • ثم ان ذاك الرجل التقى بهما وتبناها وحملهما معه في مركبته وطاف بهما البلاد وهو يسترزق من حرفته ويطعمهما ولم يزل على ذلك الى ان كبرا وبلغا أشدهما • فذهب بهما الرجل يوماً الى لوندرا فتعرف أناس على الشاب واخبروه بانه هو ابن البارون فلانشارلي من أعيان انكلتره ولورداتها فاستلم هذا الانسان الضاحك ثروة ابيه وملكه وصار عضواً في مجلس اللاوردات بعد تلك السفالة التي قضاها في سني صبوته وصار لا يتكلم في المجلس الا بالمحاماة عن البؤساء والتقريع على الاعيان والكبراء الذين لاينظرون الى الضعفاء والمساكين وكان ذا لهجة شديدة ولكنها غير منتظمة فكان اذا أتم خطبته استولى الضحك على جميع الاعضاء ولم يقرروا اجراء شيء من طلباته

وأورد المصنف في هذه القصة كثيراً من الحكم والفلسفة من ذلك ما قاله عن الطبيعة والحياة : ••••••• بعد كل شيء فالانسان لا يعيش كثيراً والحياة قصيرة تمضي بسرعة • كلا ! بل هي طويلة !! لان الطبيعة اظهرت — ولو بشيء قليل — عنايتها بالانسان لكيلا تفتر همتنا في غضون ذلك ولكي يكون على بصرنا غشاوة فنرضى بالبقاء ولا

نغتنم الفرص المناسبة لشنق انفسنا بما اعدته لنا من الحبال والمسامير • ولذا أنبتت لنا القمح وانضجت العنب وانطقت البلابل وهي مراثية بانشادها اغاني السرور واخفائها الكمد • وارتنافي بعض الاحيان شعاعاً من الفجر فهذا ما يسمونه بالسعادة • وما هي الا طرف رقيق من الخير يحيط بكفن عريض من الشر • فهذا حظنا من الدنيا نسج الشيطان منه السداة واللحمة ولم يطرز الرحمن فيه الا اطرافه وحواشيه • اه

قال المعري مخاطباً الدنيا :

يموج بحرك والاهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن ارساء
اذا تعطفتِ يوماً كنت قاسية وان نظرت بعين فهي شوساء
• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •
فلا تغرنك شم من جبالهم وعزة في زمان الملك تعساء
نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا برغمهم فاذا النعماء بأساء

٨ — ثلاث وتسعون • سماه بذلك لانه بحث فيه عن وقائع سنة ١٧٩٣ وقص فيه قصصاً حكمية فلسفية موضحة لحقيقة الانقلاب الكبير الفرنساوي وللسبب الحامل لاصحابه على الثورة ومقاومة بعض الاهالي للثائرين لعدم فهمهم المراد من الانقلاب ومن الاصلاحات الجديدة ولاعتقادهم ان الملك قوة الهية مفوضة للملك يفعل بمقتضاها ما يشاء برعيته فهم عبيده يتصرف بهم تصرف المالك في ملكه • فبين المؤلف ذلك باساليب بديعة يفهمها العوام والفلاحون وعرفهم بأن القوة الحاكمة ينبغي ان تكون في الامة وان سيد القوم يجب ان يكون خادمهم

وأما ما ألفه في التاريخ فهو :

١ • — نابوليون الصغير • كتبه المصنف بعد لبس نابوليون الثالث تاج الامبراطورية وكان هو يستشيط من ذلك غضباً فتهور في الطعن فيه والحط عليه ولما طبع الكتاب جاء أحد المتبصبصين بنسخة منه للامبراطور وكان في قصر سن كلو وهو في ضواحي باريس على نهر السين فنظر فيه طويلاً ثم التفت لمن حوله من الوزراء وأمراء العسكرية وقال لهم باستهزاء وسخرية انظروا ياسادة هذا نابوليون الصغير ألفه فيكتور هوكو الكبير • فلما بلغ الخبر مسامع فيكتور هوكو هجاه بقصيدة بليغة لم أرَ لها مثيلاً في شعر أهل العصر الا قصيدة كمال بك كبير الشعراء عند الاتراك

٢ ٠ — تاريخ جرم ٠ وهو تاريخ حادثة نابوليون الثالث سنة ١٨٥١ ألفه المصنف في خمسة أشهر ولم ينشر الا بعد ٢٥ سنة حينما سقط نابوليون الثالث ويقسم هذا التاريخ الى اربعة أيام : يوم المكيدة والكمين ٠ يوم الحرب والنزال ٠ يوم الذبح وقتل الاطفال ٠ يوم الفوز بالنصر ٠ ثم اتبعه بفصل خامس عنوانه يوم السقوط ٠ فاوضح المؤرخ في هذا التاريخ صورة الجرم ثم بين القصاص واستنتج من ذلك وظيفة الفرنساويين وهي العدل والحق

« الرين » وهو عنوان كتاب صنفه فيكتور هوكو في الرحلة والسياحة وحرر فيه ما وجده في نفسه من التأثر والاحساس الباطني والانفعال بمشاهدة ضفاف الرين وهو نهر في اوروبا ينبع من جبال الالب ويمر من بحيرة قونستانس وبمدينة بال ومايانس وقوبلينتس وقولونيا واوترخت وليدن ويصب في بحر الشمال ومما قاله في هذا التأليف عن الضمير والكائنات :

٠٠٠ لاشيء فيّ يعارض كون الشجرة عالمة بثمرتها ٠ ولكن من المحقق ان الانسان لا علم له بالمقدرة عليه ٠ حياة الانسان وعقله هما على خاطر وكيف لا أدري أي ماكنة مظلمة يسميها البعض عناية الهية والبعض الآخر يسميها صدفة ٠ فهذه الماكنة أو الآلهة تخلط وتمزج وتحال كل شيء في الوجود ٠ وهي تخفي دواليبها في الظلمات وتعرض نتائج محصولاتها في رابعة النهار ٠ يحسب المرء نفسه يفعل شيئاً وهو يفعل شيئاً آخر ٠ فالتاريخ مملوء بذلك ٠٠٠٠٠

ولكن بين هذا الاختباط يوجد قوانين ٠ فالاختباط ماهو الاّ في الظاهر والانتظام في الباطن ٠ فبعد انقضاء مدة طويلة ترجع الحوادث المدهشة التي فتحت عيون اجدادنا كما ترجع النجوم ذوات الاذناب من اعماق التاريخ المظلمة ٠ فالفخاخ هي دائماً تلك الفخاخ بعينها والسقوط دائماً عين ذاك السقوط ٠ والغدر دائماً عين ذاك الغدر ٠ والمهالك هي دائماً تلك المهالك بعينها ٠ فالاسماء تتغير والاشياء ثابتة على ما هي عليه

أما ما حرره فيكتور هوكو في الفلسفة فهو :

١ ٠ — أدب وفلسفة ممزوج بعضها ببعض ٠ وقد ذكرنا من هذا الكتاب فيما سبق تعريف الشعر وبانه لا يكفي وجود الاسلوب الحسن والشكل الظريف في البيت

بل ينبغي ان يحتوي على فكر أو صورة او احساس وشبه بيت الشعر ببيت النحل الذي يتخذه من الشمع والشعر فيه كالعسل

وقال ايضاً في تعريف الانشاء :

الانشاء هو الذي يخلد ذكر الشاعر ويبقى تأليفه • لان حلاوة التعبير تزين الفكر كالميناء على السن

وقال في تعريف الواجب :

ما دام الممكن لم يفعل فالواجب لم يؤدّ • فهذا فكر من افكاره

ومنها أيضاً في الزواج :

الزواج هو تطعيم فيه امساك جيد او ردىء

وقال في التغير والتقلب :

اذا قلنا عن رجل « رأيه السياسي لم يتغير منذ اربعين سنة » نكون مدحناه مدحاً مذموماً • لان قولنا هذا يؤدي الى انه لم يحصل له تجربة في المسائل اليومية ولا حصل لفكره انعكاس ولا اشعاع على الحوادث • فهذا من قبيل مدحنا الماء بكونه راكداً والشجرة بكونها ميتة • وتفضيلنا ما في الصدف من سمك البحر على النسر الطائر • فبالعكس كل شيء متغير في الرأي • وفي الاشياء السياسية لا شيء مطلق على اطلاقه الا الاخلاق الباطنية لتلك الاشياء • فهذه الاخلاق هي من خصائص الوجدان وليست من خصائص الرأي ومتعلقاته • فرأي الرجل يمكن حينئذ ان يتغير تغيراً لا يمس بشرفه بشرط ان لا يتغير وجدانه • فالحركة سواء كانت تقدّمية او تأخرية هي في حد ذاتها حيوية ، انسانية ، اجتماعية • » اه

وهكذا يقال في صاحب الجريدة كما يقال في رجل السياسة • وقد رأينا في ما تقدم ان رقباء فيكتور هوكو عابوا عليه تقلبه في احزاب السياسة وتغير رأيه من الملكية الى الامبراطورية الى الجمهورية

٢ • — وليم شكسبير • ومما ورد له في هذا التأليف من الحكم ما ذكره عن التقدم والترقي • قال :

فظاظة التقدم تدعى انقلابات • فاذا تمت الانقلابات اعترف الانسان بما يأتي وهو : ان النوع الانساني تألم وترضرض ولكنه مشي

فالتخريب هو الشغل والتعمير هو العمل (اي البناء كما في بناء الدار فان فيها تعميراً

مثل رفع الجدران الجديدة وتخريب مثل هدم الجدران القديم وحفر الاسس) فالتقدم يهدم باليد اليسرى • وأما باليد اليمنى فهو يعمر • فاليد اليسرى تسمى القوة واليد اليمنى تسمى العقل • اه

ففيما ذكر من مؤلفات فيكتور هوكو كفاية لمعرفة ماهيتها ولا حاجة لذكر بقيتها

الخاتمة

لا ريب في ان فيكتور هوكو من اكابر الشعراء الذين نبغوا في العالم الانساني كله في قديم الزمان وحديثه . وهو عند الفرنساويين شيخ الطريقة الرومانية والشعر الغرامي المعروف باسم (ليريك) • كما انه من فحول القصاصين ومؤلفي الروايات التمثيلية المشهورة باسم (درام) • غير ان الطريقة الرومانية التي كان لها المقام الاول في صناعة الادب سقطت بظهور الطريقة الحقيقية التي أمامها اميل زولا • وروايات فيكتور هوكو التمثيلية لم تبلغ درجة الاعجاز لا بالنظر الى المؤلفات السابقة عليها ولا الى المؤلفات اللاحقة لها من هذا النوع • لعدم كشف فيكتور هوكو اسرار القلب الانساني واظهار ما فيه من الاحساس الحقيقي • ومع ذلك فهو لم يزل امام الشعر الغرامي ومجدد اساليب النظم والنثر ولذا لقبوه بأبي الشعر العصري واقتفى الشعراء أثره وسلكوا مسلكه • وكان الباعث على شهرته في العالم المتمدن كله من أوروبي واميركي ومايلحق بهما ثلاثة أمور : أحدها سياسي وثانيها ديني وثالثها علمي :

نبغ فيكتور هوكو في عصر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله • وكان لقومه الحظ الاوفر من انقلابات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوهم انظار العالم المتمدن باسره • فكان هذا الشاعر لسان حال الامة وترجمانها في كل انقلاب حدث فيها وتبدل طرأ عليها وغير حكومتها من ملكية مطلقة الى جمهورية مفرطة ، الى امبراطورية ديموقراطية ، الى ملكية مقيدة بقليل او بكثير من القيود ، الى جمهورية ثانية ، الى أمبراطورية ثانية ، ثم الى جمهورية ثالثة • فهذه التقلبات هيجت الافكار العمومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت الى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل باشعاره في نوادي السمر الادبية والسياسية على اختلاف الآراء وتبدل المشارب • ومتى تحدث أهل العاصمة بأمر سارت الركبان بحديثهم الى الولايات واطراف المملكة ثم فشى في